ابن خلدون

حياته وتراثه الفكري

تأليف

محمد عبد الله عنان

المحامي

الحقوق كلها محفوظة

وممنوع أى نقل أو ترجمة أو اقتباس إلا بإذن خاص

ابن خلدون

حياته وتراثه الفكرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ما زال تراث ابن خلدون فريدا بين آثار التفكير الإسلامى ، ومازال يحتفظ رغم كر العصور بكل قيمته وروعته وجدّته ، و يتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمى . ولكن ابن خلدون الذى اكتشفه الغرب وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يُغمط فى الشرق حقه ، و يغمر ذكره ، و ينسى تراثه . و بينما ظهرت فى الغرب عنه وعن تراثه تراجم وبحوث نقدية عديدة ، اذا به لا يكاد يظفر بشىء من ذلك فى الشرق موطنه وصاحب تراثه .

وقد كان مما يدعو الى الغبطة أن ذُكر ابن خلدون أخيرا ، وترددت الدعوة لإحياء ذكراه لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده ، فاستجابت دوائر التفكير والأدب فى جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عدة حفلات علمية للاشادة بذكره وخالد آثاره ، ولا سيما فى تونس مسقط رأسه ومطلع مجده ، وفى مصر مقام

شيخوخته ومثوى رفاته ، وحفلت المجلات والصحف العربية حينا بمختلف البحوث عنه ؛ وبذلك مثلت ذكراه قوية بيننا مدى حين ، والتفتت الأنظار نوعا الى قراءته ودرسه .

ولما كان ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين عرفتهم وقرأتهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهنى بطابع عميق ؛ وكان فى مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمته ، فإن هذه الدراسة التى أقدمها اليوم للتعريف بابن خلدون وتراثه ، إنما هى وفاء التلميذ لأستاذه ؛ التمست لكتابتها هذه الذكرى الستمائة لمولد المؤرخ والفيلسوف العظيم ، وكنت أعتزم أولا أن أقدمها باسم "ذكرى ابن خلدون" ولكنى خشيت ألا يدل اسم الكتاب على حقيقة محتوياته فآثرت أن أقدمه باسمه الحالى .

وقد عنيت بأن أتتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصّل الحوادث السياسية التى اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية فى أواسط القرن الثامن ، فقد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها فى هذه الحقبة وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون فى مصر عناية خاصة ففصّلتها تفصيلا وافيا ، وشرحت علائق المؤرخ بالمجتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين من صنوف الخصومة والجدل ، شرحا ضافيا .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتناوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن اجتنب الجدل والمقارنات المعقدة ، مع حرصى فى الوقت نفسه على مواطن التقدير والجدل المفيد . وقصدى بما كتبت فى ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب المثقف بطريقة موجزة واضحة ، حتى اذا وقف عليه واستطاع أن يسيغه وأن يقدره ، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه و يدرسه بإمعان وافاضة . أما دراسة البحث الغربى لابن خلدون ، وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد افردت له فصلا خاصا يضم خلاصة وافية لكل ما كتب فى ذلك الشأن .

كذلك رأيت أن أضع بيانا فهرسيا عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التى مرّ بها حتى تم نشره وظهوره ، والمخطوطات التى رُجع إليها فى نشره ، وما تُرجم منه الى مختلف اللغات الأوربية ، وما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكاتب . وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التى رجعت اليها ، والتى يُدرس فيها ابن خلدون وأثره ، لكى يرجع اليها من شاء التوسع والمزيد .

ان ابن خلدون على قِدَمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذا لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ

الشباب مقـدمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مرارا وتكرارا ، لا ليعجب فقط بما حوت من رائع التفكير والبحث ، ولكن أيضا ليستق منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الإجتماعية التى تجول بذهنـه وكثيرا ما يتعثر فى التعبير عنها ؛ ذلك أن مقدمة ابن خلدون اذا كانت ثروة لا تقـدر فى تراث التفكير العربى ، فهى أيضا ثروة لا تقدر فى تراث البيان العربى .

فإلى الشباب المثقف فى مصر ، وفى جميع البلاد العربيـة ، أقدم هذه الدراسة لشخصية ممتازة فى التفكير الاسلامى ، وذهن عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله الى وضع مبادئ الاجتماع ، وما زال موضع إعجاب التفكير الغربى وتقديره ، راجيا أن يجد الشـباب فى هذه الدراسة ما يحفزه الى قراءة ابن خلدون ودرسه والانتفاع بنفيس تراثه ما

القاهرة فى أواخر اكتوبر سنة ١٩٣٣

محمد عبد الله عنان

المحامى

الكتاب الاول

حياة ابن خلدون

١

فى المغرب والأندلس

٧٣٢ — ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ — ١٣٨٢ م

الفصل الاول

نشأة ابن خلدون

بنو خلدون . نشأتهم بالأندلس وظهورهم فى ميدان الرياسة . نزوحهم الى المغرب . محمد بن خلدون والد المؤرخ . نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الفناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة فى بلاط تونس .

كان العام الماضى مبعث ذكرى خالدة فى التفكير الإسلامى : تلك هى انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسى والفيلسوف الإجتماعى . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم تتبوأ بين تراث العربية أسمى مكانة ، فجدير أن تكون هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ؛ فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع .

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه[1] ، ودوّن لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيرا من خلاله وخواصه ونواحى نفسه ؛ وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التى تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، انه لم يترك لمترجمه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار ؛ وفى هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو أخصب

---

(١) سنتناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون .

مصادرنا وأهمها فى كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛ ولكن مهمة المترجم الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث المادية ؛ فاذا لم تك ثمة حاجة الى تحقيق الوقائع والحوادث ، فهنالك دائما وجهة التقدير واستخلاص النواحى المعنوية ؛ وهنالك اختلاف الفهم والعَرْض . واذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته وحوادث عصره التى ارتبطت بهذه السيرة ، فإنه يعرضها طبقا لفهمه ووجهة نظره ، وقد يتأثر عرضه فى كثير من الأحيان بالعاطفة والهوى . وتحرى الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة . فإذا كنا نغتبط بهذا التراث الذى تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه ما يسهل مهمة ترجمته ، فإنا قد نشعر من جهة أخرى بالحرج فى كثير من المواطن التى نلمح فيها أثر العاطفة والهوى .

واذًا فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الاولى فى ترجمته ؛ ولكنه لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهنالك مصادر وتراجم عديدة أخرى جديرة بالبحث والمراجعة ، ولا سيما عن حياته فى مصر . وسوف نستشيرها جميعا . وسنتتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله . ولكنا سنحاول ان نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة ، وأن نستخلصها من مختلف المؤثرات والأهواء .

— ١ —

ولد ابن خلدون بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) فى أسرة أندلسية نزحت من الأندلس الى تونس فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهو ولىّ الدين عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن

ابن خلدون . ويرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية فى حضرموت ، ونسبه الى وائل بن حجر ، ويعتمد فى ذلك على رواية النسابة الأندلسى ابن حزم[١] ، غير أنه يشك فى صحة هذه السلسلة ، ويعتقد أن أسماء منها قد سقطت ، لأنه اذا كان خلدون هو جده الداخل الى الأندلس عند الفتح ، فان عشرة أجداد لاتكفى لقطع ستة قرون ونصف ، التى انقضت منذ الفتح حتى مولده ، وفى رأيه أنه يجب لقطعها عشرون باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن . وأما نسب جده خلدون الداخل إلى الأندلس ، فهو كما روى ابن حزم أيضا ، خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر . فابن خلدون طبقا لهذه النسبة سليل أصل من أعرق الأصول العربية اليمانية ، ولكن هنالك ما يحمل على الشك فى صحة هذا النسب البعيد الذى يدونه ابن حزم لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى ، ويقوى هذا الشك لدينا ما نعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر فى الأندلس ، فقد اشترك البربر فى فتح الأندلس ، وقاموا بمعظم أعبائه ، ولكن العرب انفردوا دونهم بالرياسة والحكم ، واستمرت الخصومة بينهما أحقابا طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية ، وبدأت غلبة البربر منذ أوائل القرن الخامس . وكانت العروبة فى الأندلس شرفا يُرغب فى الانتساب إليه ، لما كان لها من السيادة والنفوذ ، ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة ، بل لقد تطرق هذا الشك الى أنساب زعماء

(١) توفى ابن حزم سنة ٤٥٧ هـ — ١٠٦٥ م .

الفاتحين أنفسهم ، فقيل عن طارق بن زياد، إنه من البربر وقيل إنه فارسى من موالى العرب . وهنالك أيضا ما يبعث على التأمل فى تعلق ابن خلدون بهـذه النسـبة العربية، وهو أنه فى مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الخصومة والتحامل، بينما نراه فى مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر ويشيد بخلالهم وصفاتهم[1] .

وعلى أى حال فان ابن خلدون ينتمى الى بيت من بيوت الرياسة فى الأندلس يرجع الى عصر الفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون الى الاندلس فى جند اليمانية ونزل أولا فى مدينة قرمونة، ونشأ بها بيته . ثم انتقل بنوه الى إشبيلية . ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا فى أواخر القرن الثالث فى عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموى (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ)، ففى عهده اضطرمت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة الى معظم النواحى ؛ وكانت إشبيلية فى مقدمة المدن الثائرة؛ ثار بها أمية بن عبد الغافر، وعبد الله بن الحجاج ، وكريب[2] وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة . وكان أمية حاكم المدينـة من قبل الأمير محمد ، فخلع الطاعة واستبد بها ، وقتـل ابن الحجاج ؛ فثار عليـه بنو خلدون و بنو الحجاج، واشتدوا فى مناوأته، وقاتلوه حتى قتل؛ واستبد كريب بن خلدون بالأمر ، واسـتقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج، وتحالف زعيمهم ابراهيم مع ابن حفصون

(١) سنعرض الى ذلك فى فصل قادم .

(٢) وردت فى التعريف (كريت) — كتاب العبر، ج ٧ ص ٣٨٠ . ولكن الأرجح انها كريب .

أعظم ثوار الأندلس يومئذ والمتغلب على جنوبها ما بين مالقة ورندة، فخشى كريب أمره وأشركه معه فى حكم إشبيلية . وكان كريب صارما شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا الى ابراهيم لما رأوه من رفقه ولينه ؛ واتصل ابراهيم بالأمير عبد الله وحصل منه سرا على عهد بولاية إشبيلية ، ثم ثار فى أهل المدينة بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة أو رياسة، حتى كان عهدالطوائف واستيلاء ابن عباد على إشبيلية؛ فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية ،ورقت الى مراتب الرياسة والوزارة فى دولة بنى عباد، وشهد زعماؤها موقعة الزلّاقة الشهيرة التى انتصر فيها ابن عباد وحليفه يوسف بن تاشفين المرابطى على ألفونسو السادس ملك قشتاله (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) واستشهد جماعة منهم فى الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعا، واستولى المرابطون على الأندلس مدى حين ؛ ثم قام الموحدون بالمغرب وانتزعوا الأندلس من المرابطين؛ واقطعوا زعماءهم الولايات والمدن،فولى على إشبيليه وغرب الأندلس أبو حفص زعيم هنتاتة ، وتوارث بنوه الولاية . واتصل بنو خلدون بالولاة الجدد، واستعادوا قسطا من الجاه والرياسة .

ولما اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس، وتضعضعت قواعدها وثغورها وأخذت تسقط تباعا فى يد ملك قشتالة ، نزح الأمير أبو زكريا الحفصى حفيد أبى حفص الى إفريقية سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى

عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشى بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا إشبيلية قبل أن تقع فى يد النصارى ، ونزلوا حينا لسبتة ، فأكرمهم حاكمها الحفصى ؛ ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن محمد بن خلدون رابع جد المؤرخ بالأمير أبى زكريا فى مدينة بونه ، فأغدق عليه عطفه ونعمه ؛ ثم توفى الأمير زكريا وخلفه ابنه المستنصر ، فولده يحيى ، فأخوه إسحاق ؛ وبنو خلدون خلال ذلك ينعمون بالجاه والسعة . وفى عهد أبى إسحاق ، ولى أبو بكر محمد ابن خلدون جد المؤرخ الثانى شئون الدولة ، وولى ولده محمد جد المؤرخ شئون الحجابة حينا لأبى فارس ولد أبى اسحاق وولى عهده ، وكان قد استقل بحكم بجاية . ثم اضطرب مُلْك بنى حفص ، وثار بهم زعيم يدعى ابن أبى عمارة وتغلب على تونس ، واعتقل أبا بكر ابن خلدون وقتله وصادر أمواله ؛ وبقى ولده محمد فى بلاط بجاية ، وخاض غمار المعارك التى نشبت يومئذ بين بنى حفص والخوارج عليهم ؛ ولبث يتقلب فى ظل بنى حفص فى مراتب الدولة . ثم غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيى اللحيانى سنة ٧١١ هـ فقربه وتولى حجابته حينا . ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقى مع ذلك على مكانته ونفوذه فى الدولة حتى توفى سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) .

أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ ، فقد زهد فى الحياة السياسية ، وآثر حياة الدرس والعلم ، وبرز فى الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر . وتوفى إبان الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وله من الولد عدّة : أبو زيد ولى الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ فتى يافعا فى الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم ،

ولم يظهر منهم الى جانب المؤرخ سوى يحيى الذى تولى الوزارة فيما بعد[١] .

— ٢ —

كان ابن خلدون إذًا سليل أسرة عريقة نابهة ، و بيت علم ورياسة ، فنشأ فى مهاد هذا التراث الذى تلقاه عن أسرته ، تهذيه جدودها وتقاليدها ، ودرج فى حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ؛ وقرأ القرآن وحفظه ، وتفقه فى القراءات السبع ، ودرس شيئا من التفسير والحديث والفقه ، ودرس النحو واللغة ، على أشهر أساتذة تونس . وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب فى بلاد المغرب ؛ وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . و يذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته فى كل علم وفن ، و يعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ؛ و يذكر لنا أيضا أسماء بعض الكتب التى درس فيها . و يبدو مما كتبه فى ذلك أنه تخصص نوعا فى درس الحديث والفقه المالكى ، وعلوم اللغة والشعر[٢] . ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد أثناء حياته العملية ؛ و ينوه ابن خلدون بتفوقه فى درسهما[٣] ، وقد شهد له جميع أساتذته وأجازوه[٤] .

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة . وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التى نكبت

---

(١) ذكر ابن خلدون اخوته هؤلاء فى مواضع متفرقة من « التعريف »

(٢) راجع التعريف — كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥

(٣) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١ .

(٤) من الإجازة وهى شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه بنجاح .

العالم الاسلامى كله من سمرقند إلى المغرب ، ونعنى بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه آبن خلدون ؛ وهو نفس الوباء الفاتك الذى عصف يومئذ بايطاليا ومعظم الأمم الأوربية ، والذى ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور (١) . وقد وقعت هذه النكبة بالمشرق والمغرب معا سنة ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ) ، وهلك فيها والدا المؤرّخ و جميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير آبن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة فى لهجة مؤثرة فيقول إنها : «طوت البساط بما فيه» ، وفيها : « ذهب الأعيان والصدور و جميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله » ، ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار فى الدرس ، فعوّل على النزوح إلى المغرب الأقصى حيث نزح بعض شيوخه وأصحابه ، فردّه عن ذلك أخوه الأكبر محمد . ولم يمض طو يل على ذلك حتى سنحت له فرصة النزول إلى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس يومئذ ، لكتابة العلامة عن محجوره وأسيره السلطان الفتى أبى اسحاق ؛ وكتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ؛ وكان المؤرّخ يومئذ حَدَثا فى دون العشرين .

(١) تناولنا تاريخ هذا الوباء ووصف مناظره فى الشرق والغرب فى فصل خاص فى كتابنا مصر الاسلامية (ص ٨٨ — ٩٥) .

الفصل الثانى

ابن خلدون فى بلاط فاس

أوضاع إفريقية السياسية فى القرن الثامن . بنو حفص و بنو عبد الواد و بنو مرين . السلطان أبو الحسن واستيلاؤه على تونس . أحوال الدول والقصور المغربية فى هذا العصر . تأثر الحركة الفكرية بالتطورات السياسية . أمنية ابن خلدون فى النزوح إلى المغرب . فراره من تونس . اتصاله بالسلطان أبى عنان ملك المغرب الأقصى . توليه الكتابة والتوقيع له . أطماعه ونفسه الوثابة . خوضه لغمار الدسائس . اتهامه بالتآمر . سجنه ومحنته . افراج الوزير حسن بن عمر عنه و ردّه الى وظائفه . انتهازه للفرص وانقلابه على الوزير عمر . دعوته السلطان أبى سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبى سالم وتوليته كتابة السر والانشاء لابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره فى هذا العهد . ولايته لخطة المظالم . سقوط أبى سالم ومصرعه . تغلب الوزير عمر ابن عبد الله على الدولة . انضواء ابن خلدون تحت لوائه . النفرة بينه و بين الوزير . اعتزامه الرحلة الى الأندلس .

— ١ —

ويجدر بنا قبل أن نتتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحا للثورات السياسية العنيفة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات و إمارات عديدة . فقامت فى تونس

(إفريقية) دولة بنى حفص، وقامت دولة بنى عبدالواد فى تِلمسان والمغرب الأوسط، وقامت دولة بنى مَرِين فى فاس والمغرب الأقصى . وقامت فى ظل هـذه الدول وخارجها إمارات صغيرة فى بعض القواعد والثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء. وكان أكبر غنم فى تراث الموحدين لبنى مرين؛ وكانت دولتهم أعظم الدول الجديدةوأقواها، تشمل المغرب الأقصى وسبتة وجزءا من المغرب الأوسط وأحيانا جبل طارق . وكان عميدهم ومؤسس دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى غزا الأندلس أكثر من مرة، وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م). وتعاقب من بعده على العرش عدّة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش فاس فى العصر الذى نتحدّث عنه السلطان أبو الحسن ؛ تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبى سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) . وكان يجيش بأطماع ومشاريع كبيرة . ففى سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى . ثم زحف على المغرب الأوسط ، وما زال يفتتح ثغوره تباعا من يد بنى عبد الواد حتى استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ . وبذا امتدّت دولة بنى مرين شرقا حتى حدود إفريقيـة (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن بعد ذلك يتطلع الى فتح إفريقية من يد بنى حفص أصهاره وأصدقائه ؛ فسار إليها فى أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنه السلطان أبى عنان على المغرب الأوسط . واستولى على تونس من يد سلطانها عمر بن أبى يحيى ؛ ولبث نحو عامين فى تونس يوطد شئونها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه إلى المغرب الأقصى

وخرج كثير من الثغور عن طاعته ، و بلغه تحفز ولده السلطان أبى عنان لانتزاع العرش ، فاختار ولده الفضل لولاية تونس ، وغادرها سنة ٧٥٠ هـ إلى المغرب الأقصى . وفى ذلك الحين كان بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظاهرتهم الثغور و بايعتهم ؛ فلما غادر أبو الحسن تونس ، زحف عليها المولى الفضل بن السلطان أبى يحيى ، واستولى عليها ، واستعاد مُلْك أسرته . ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله بن تافراكين ، وانتزع منه العرش وأقام فيه أخاه الطفل أبا اسحق بن أبى يحيى فى كفالته وتحت استبداده ، وذلك فى أوائل سنة ٧٥١ هـ .

هكذا كانت أحوال الدول المغربية فى منتصف القرن الثامن الهجرى : كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لاتنقطع ؛ والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر . وكانت تقوم إمارات صغيرة متعاقبة ، فى القواعد والثغور الوسطى مثل بِجاية وقُسَنْطينة ، و بونه ، وتلمسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها ، فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها فى يد القدر ؛ وكانت قصوره لذلك مهبط الأطماع والمنافسات ، ومكمن الدسائس والمكايد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك ؛ وكانت العروش والإمارات دائمة التقلب والتداول ، والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر أو فروع الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة تسطع فى فترات السلم القليلة ، وتتنافس فى البهاء والبذخ ، وتجتذب

اليها رجال التفكير الأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مرين بالأخص ملاذ العلماء والأدباء ، يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم ويتقلبون فى نعمهم ؛ ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة . ونلاحظ فى تاريخ المغرب فى هذه الحقبة أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر وتتنقل طبقا لأحوال الدول وتقلباتها ، وانها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل ، وانها لاتكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع إلى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال . وكما أن الحركة الفكرية كانت يومئذ فى المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل حول دوله وقصوره ، فكذا كانت دائمة التردد بين المغرب والأندلس . وكانت غرناطة لاتزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الأندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها خصوصا بعد أن قصّت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها ، واستولت على معظم ثغورها وقواعدها ؛ ولذا نرى كثيرا من علماء الأندلس وأدبائها ينزحون إلى المغرب باعتباره أوسع آفاقا وأوفى طمأنينة وأيسر رزقا

فى معترك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العامة . وكان بنو خلدون مذ نزحوا الى إفريقية فى أواسط القرن السابع يستظلون برعاية بنى حفص وينعمون فى ظل دولتهم بمراتب الجاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت يومئذ فى دور انحلالها ، وفقدت أسرة المؤرخ كثيرا مما كانت تتمتع به من الجاه والرزق ؛ وكان ابن خلدون يتطلع بلا ريب إلى اجتناء تراث أسرته ، وإحياء نفوذها الذاهب ، وكان رأسه الفتى يضطرم بلا ريب بكثير من الأطماع والمشاريع . وقد سنحت له أول فرصة للنزول

إلى ميدان الحياة العامة ، حينما استدعاه ابن تافراكين كما قدمنا لكتابة العلامة عن محجوره السلطان أبى اسحاق ، وذلك فى أواخر سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م). ولكن ابن خلدون كان ينظر إلى ضعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والجزع . وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين كما قدمنا ، وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطانهم ؛ ولما غادر السلطان أبو الحسن تونس إلى المغرب الأقصى ، غادرها فى ركبه معظم المفكرين والأدباء من شيوخ ابن خلدون وأقرانه ، إيثارا للعيش فى ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحا إلى اجتناء الجاه والرزق بعد أن نفقت سوقهما فى تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ ، ولكن أخاه الأكبر صده حينا عن تحقيقها ؛ فلما استدعى لكتابة العلامة أخذ يترقب الفرص للنزوح إلى المغرب الأقصى ليبحث وراء طالعه وليعالج تحقيق أطماعه حيثما يلوح أفق المغامرة أوسع وأجدى .

— ٢ —

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة ؛ ففى أوائل سنة ٧٥٣هـ ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى فى قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلاء عليها واسترداد تراث أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين . فسار ابن تافراكين فى جنده الى لقائه وصحبه ابن خلدون فى ركبه . ووقعت بين الفريقين عدة معارك كانت الدائرة فيها على جند تونس ؛ وانسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجيا بنفسه ، وأقام

حينا فى أبة عند بعض شيوخ المرابطين ؛ ثم قصد سبتة ، ثم ارتد الى قفصة حيث وافاه بعض فقهاء تونس ، وكان يحاصرها عندئذ أمير قسنطينة ؛ ومن هنالك سار معهم الى بِسْكِرَة وقضى بها الشتاء .

وفى ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى قد توفى (فى ربيع الثانى سنة ٧٥٢) على أثر خروج ولده السلطان أبى عنان عليه واستيلائه على فاس . وكان أبو عنان أميرا وافر البأس والعزم فما كاد يستقر على عرش أبيه ، حتى أخذ يهيء العدّة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التى افتتحها أبوه من يد بنى عبد الواد ثم استعادوها لأعوام قلائل . فزحف عليها فى أوائل سنة ٧٥٣ واستولى عليها وقتل ملكها أبا سعيد ؛ ثم استولى على بجايه بدخول صاحبها فى طاعته . وكان ابن خلدون يومئذ فى بسكرة كما قدمنا ، فسعى الى لقاء السلطان أبى عنان أثناء مقامه بتلمسان ؛ ويقول لنا المؤرخ إن السلطان أكرمه بما لم يكن يحتسب ، ورده مع حاجبه ابن أبى عمرو الى بجاية حيث شهد مراسيم البيعة والتسليم . فلما عاد الحاجب الى السلطان ، وهرعت معه الوفود الى ركابه سار ابن خلدون معهم وحظى بلقاء السلطان وكرم وفادته مرة أخرى . ثم ارتد السلطان الى فاس عاصمة ملكه ، وارتد ابن خلدون مع ابن أبى عمرو الى بجاية ، وأقام هنالك عنده حتى أواخر سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) .

ولبث ابن خلدون يسعى فى الالتحاق ببطانة السلطان أبى عنان حتى ظفر ببغيته . ويقول لنا ابن خلدون ان السلطان هو الذى استدعاه بعد أن جرى ذكره أمامه فى مجلس عقد لاختيار

طلبة العلم ؛ فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضوا فى مجلسه العلمى وكلفه بشهود الصلوات معه . وما زال يدنيه و يقربه حتى عينه فى العام التالى ضمن كتابه وموقعيه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التى شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها مقاما وخطورة . وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما كان يجيش به المؤرخ رغم حداثته من الأطماع الكبيرة . على أنه استطاع أثناء مقامه بفاس ، أن يستأنف الدرس والقراءة ، على جماعة من أكابر العلماء الوافدين اليها من الأندلس و باقى أقطار المغرب . ولا ريب أنه استفاد كثيرا فى تلك الحقبة ، ونمت معارفه نموا كبيرا .

ومن ذلك الحين يغدو آبن خلدون شخصية ظاهرة فى تاريخ الدول المغربية فى هذا العصر ؛ تأخذ بقسط بارز فى تطورات هذه الدول وتقلباتها ، وتشترك أحيانا فى تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها ، وأحيانا تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكان آبن خلدون لا يزال عندئذ فتى فى نحو الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكن ذكاءه وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة أطماعه ، واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائما إلى طلب المزيد من الجاه والنفوذ والرزق . وكانت أحوال الدول والقصور المغربية فى ذلك العصر ، كما بينا ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم . وكانت صلة آبن خلدون بالسلطان أبى عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وانتظامه فى سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مُفتتح أفقه ، وبَدْأ ذلك النشاط السياسى الزاخر

الذى لبث مدى ثلث قرن يحمله بين دولة ودولة، وبين قصر وقصر، وبين الرفعة والسقوط، والنعم والمحن، مرارا .

لم يمض على انتظام ابن خلدون فى بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة إلى خوض غمار الدسائس السياسية . ومع أن سيده وحاميه السلطان أبى عنان لم يدخر باعترافه وسعا فى اكرامه والعطف عليه، ومع أنه ولاه رغم حداثته منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فإنه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أبى عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ أسيرا فى فاس . ويروى لنا ابن خلدون قصة هذه المؤامرة فى عبارة غامضة[1] ؛ ويعترف بماوقع بينه وبين أمير بجاية الأسير من التفاهم، وأنه خرج فى ذلك التفاهم عن حدود التحفظ . ولكنه يعتذر لنا بأنه حُمل على ذلك بما كان بين أسرته وبين بنى حفص الذين ينتمى إليهم الأمير المخلوع من الود القديم . وكان السلطان أبو عنان يومئذ مريضا فنمى إليه خبر المؤامرة ، وأن ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر[2] . فأمر بالقبض عليه وألقاه فى غيابة السجن، ومع أنه أطلق أمير بجاية فيما بعد ، فإنه أبقى المؤرخ يرسف فى أغلاله . ونزلت بابن خلدون تلك المحنة التى ينسبها إلى سعاية خصومة فى أوائل سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) .

وقضى ابن خلدون فى ظلام السجن زهاء عامين طويلين ،

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٠٣

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤١٧

وتضرع الى السلطان أبى عنان مرارا أن يطلقه، ولكن السلطان أعرض عن كل تضرع وشفاعة؛ وأخيرا رفع اليه قصيدة طويلة فى نحو مائتى بيت يلتمس عطفه وصفحه ؛ وقد ذكر لنا منها الأبيات الآتية :

على أى حال لليالى أعاتب ... وأى صروف للزمان أغالب
كفى حزنا أنى على القرب نازح ... وأنى على دعوى شهودى غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل ... تسالمنى طورا وطورا تحارب

* * *

سلوتهم الا اذكار معاهد ... لها فى الليالى الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يسوقنى ... اليهم وتصبينى البروق اللواعب

ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان أحسن موقع . وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه . ولكن المرض اشتد به وتوفى قبل تحقيق الوعد فى ذى الحجة سنة ٧٥٩ (أواخر ١٣٥٨ م) . فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين، ورده الى سابق وظائفه، وأغدق عليه عطفه، وأحسن رعايته ومثواه .

— ٣ —

ولما توفى السلطان أبو عنان ، أقصى الوزير الحسن بن عمر ولده وولى عهده أبا زيان عن الملك ، وأقام ولده الطفل السعيد على العرش ، واستبد بالدولة وقتل منافسيه من الوزراء الآخرين . وكان أبو عنان حينما انتزع العرش من أبيه قد قبض على أخيه المولى أبى سالم ونفاه الى الأندلس مع باقى اخوته ؛ فلما توفى أبو عنان

بادر أبو سالم بالسعى الى استرداد العرش وعبر الى المغرب بعد صعاب جمة ، ونزل بجبال غمارة ودعا بالملك لنفسه ، فاجتمعت اليه قبائل غمارة وظاهرته على أمره ؛ وحدث فى الوقت نفسه انقلاب جديد بفاس . ووثب منصور بن سليمان وهو من عقب يعقوب بن عبد الحق بالوزير الحسن فانتزع السلطة من يده ، وتوارى الوزير وسلطانه السعيد ، فحاصرهما المنصور . وألفى ابن خلدون فى تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور ؛ وقام خلالها بدور لا يحمد . وقد كان تصرفه فى حق السلطان أبى عنان بادرة سيئة تنم عن عواطف وأهواء ذميمة ؛ بيد أنه لم يكن وليد خطأ مؤقت ، بل كان بالعكس عنوان نزعة متأصلة فى النفس ، وثمرة مبدأ راسخ . كان ابن خلدون رجل الفرص ، ينتهزها بأى الوسائل والصور ؛ وكانت الغاية لديه تبرر كل واسطة ، ولا يضيره فى ذلك أن يجزى الخير بالشر والإحسان بالإساءة ؛ وهو صريح فى تصوير هذه النزعة لا يحاول اخفاءها . فقد أطلقه الوزير ابن عمر من الأسر ، وأحسن اليه وأثابه ؛ ولكنه ما كاد يرى وثوب المتغلب منصور بن سليمان حتى ترك جانب الوزير الى جانب خصمه ، وتولى الكتابة للملك الجديد ؛ بيد أن ولاءه لم يطل ؛ فإن السلطان أبى سالم نزل فى غمارة وأخذ يدعو لنفسه ، فاتصل مبعوثه الفقيه ابن مرزوق بابن خلدون سرا ، وسلمه من أبى سالم كتابا يرجوه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده ويعده بأجمل خير وحظوة ، فقام ابن خلدون بالمهمة ، ومضى فى تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبى سالم ، وأجمعوا أمرهم على تأييده ؛ وكذا وافق الوزير ابن عمر على طاعته بعد أن

أجهده الحصار . ثم غدر ابن خلدون سيده فجأة مع نفر من الزعماء الى معسكر السلطان أبي سالم ، وعرض عليه خطته لخلع منصور ابن سليمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح لنا بأنه انحرف عن منصور "لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر الى السلطان"[1] . وسار أبو سالم فى جموعه ، وابن خلدون فى ركابه ، الى فاس ، ففر منصور بن سليمان عند مقدمه ، وجلس أبو سالم على عرش أبيه (فى شعبان سنة ٧٦٠) وعين ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . وينوه ابن خلدون بأنه نهج يومئذ فى كتابة الرسائل نهجا جديد ، إذ تحرر من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه الى السهل المرسل ، ويقول لنا أيضا إن شاعريته تفتحت فى هذه الفترة ، فنظم الكثير من الشعر الذى "يتوسط بين الإجادة والقصور" وأنشد السلطان كثيرا من القصائد فى مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمه فى ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها الى السلطان ليلة المولد النبوى (سنة ثلاث وستين) يعدد فيها مناقب النبى الكريم ومعجزاته ، ويمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى ... وأطلن موقف غربتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبى رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبى

ومنها :

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٢٠٥

سائل به طامى العباب وقد سرى | تزجى بريح العزم ذات هبوب
تهديه شهب أسنة وعزائم | يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه | وسط الهدى بفريقها المغلوب

ورفع الى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان (سنة ٧٦٢) وفيها الزرافة، قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره، ويصف الزرافة بما يأتى :

ورقيمة الأعطاف حالية | موشية بوشائع البرد
وحشية الأنساب ما أنست | فى موحش البيداء بالغرد
تسمو بجيد بالغ صعدا | شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به | ولربما قصرت عن الوهد

وقد كانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلدون، فيما يظهر، عهد البيان والشاعرية، فاشتهر أمر نثره ونظمه فى دوائر الأدب والشعر بالمغرب والأندلس يومئذ . ويصف لنا ابن الخطيب نثره ورسائله السلطانية بأنها "خلج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع يفرغ عنه يراعه الجرئ، شبيهة البداءات بالخواتم فى نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع" ويقول عن نظمه إنه "نهض لهذا العهد قدما فى ميدان الشعر ونقدم باعتبار أساليبه، فانثال عليه جوه، وهان عليه صعبه، فأتى منه بكل غريبة" (١).

ونلاحظ أن شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف

(١) ابن الخطيب، فى ترجمته لابن خلدون فى "الإحاطة فى أخبار غرناطة" ونقلها المقرى فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

وأنه ينحو فى كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين فى صوغ الغـزل الروحى . وقـد كان ابن خلدون على ما يظهر يجيش بنزعة صوفية ؛ ويبدو مما كتبه فى المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتبارات الدنيوية والسمو الى الملكوت الأعلى[١] انه قـد درس التصوف وخواصه دراسة لابأس بهـا . ونحن نورد خلال حديثنا نمـاذج من نظم ابن خلدون مما دونه فى "التعريف" أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئا منها ؛ غير أنه دون بعض رسـائله الخاصة التى تبادلها مع ابن الخطيب ، وفيها تبدو قوة بيانه ومقدرته فى معالجة النثر المرسل[٢] . على أنه يبدى مثل هـذه المقدرة فى البيان والتعبير بالأخص فى مقدمته ، وجميع تاريخه حسبما نبين بعد .

ولبث ابن خلدون فى كتابة السر والإنشاء والمراسيم للسلطان أبى سـالم زهاء عامين ، ثم ولاه "خطة المظالم" (القضاء) فأداها بقوة وكفاية . بيـد أن حظوته لدى السلطان ضعفت واضمحل نفـوذه ؛ وكانت المنافسات دائمـة الاضطرام بينـه وبين رجال الدولة . وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السـلطان وزميـله فى المنفى متمكنا من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأى ، حتى أصبح هو المتسـلط على شئون الدولة والقابض على كل سـلطة ، يتصرف بالأمر والنهى طبق هواه ؛ فكان هـذا الطغيان يسخط رجال الدولة وأولى الرأى ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان

(١) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

(٢) تراجع هذه الرسائل فى كتاب العبر ، ج ٧ ص ٤٢٧ و ٤٣٤

ابن خلدون ممن عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوتهم ونفوذهم، وكثرت منه الوقيعة والسعاية فى حقه غيرة منه، وخشية من نفوذه؛ وتمادى ابن مرزوق فى طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه وعلى السلطان من كل ناحية، وأجمع الزعماء والكبراء رأيهم على الخروج والثورة. وكان زعيمهم فى ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان. وكان أبوه الوزير عبد الله بن على من قبله متمكنا فى دولة بنى مَرين بجاهه وواسع ثروته. فلما توفى سنة ستين عند ولاية السلطان أبى سالم تطلع الولد إلى تراث أبيه، واستعان بابن مرزوق على تحقيق بغيته، وزوجه السلطان بأخته، وعينه كبير أمنائه وجعله موضع ثقته حينا. ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة كان يحفظه ويذكى سخطه؛ وكان السلطان من جهة أخرى يشك فى صلته بأمير تلمسان وأنه يأتمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة؛ فلما تجاوز ابن مرزوق فى طغيانه كل حد، واختمرت فكرة الثورة، تفاهم عمر بن عبد الله مع قائد الجند، ووثب بالقصر الملكى فى غيبة السلطان واستولى على البلد الجديد (العاصمة الجديدة) ونادى بخلع أبى سالم وتولية أخيه تاشفين سلطانا مكانه؛ واضطرمت عندئذ نار الثورة فى كل ناحية ونهبت الخزائن الملكية؛ وحاول أبو سالم أن يهاجم الثوار لاسترداد عرشه، ولكنه لما رأى تسرب أصدقائه من حوله إلى الظافر، فر فى جماعة من صحبه، فطارده الوزير عمر وقبض عليه وأمر بقتله؛ واستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة؛ وكان ذلك الإنقلاب فى أواخر سنة ٧٦٢هـ (١٣٦١ م)[1].

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣١٢ — ٣١٤

ماذا كان موقف ابن خلدون إزاء ذلك الإنقلاب الجديد ؟ كان كما عهدناه دائما إلى جانب الظافر ينضوى تحت لوائه دون إحجام ولا تردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره فى وظائفه وزاد فى إقطاعه ورزقه . ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة . فقد كان على قوله «يسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كان فيه» . وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبى عنان صداقة قديمة ، وكان يعتمد على هذه الصداقة فى التمكن لدى الوزير ويرى لها حقها عليه ، ويرجو أن تكون الفرصة قد سنحت لتحقيق أمانيه فى الظفر بمناصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن الوزير عمر لم يحقق له أملا فى ذلك . ولعله كان يخشى بحق مما تجيش به نفسه من المشاريع والخطط . فعندئذ غضب ابن خلدون واستقال من وظائفه ، واستاء منه الوزير وأعرض عنه وتنكر له ؛ فتوجس ابن خلدون شرا ، واستأذن فى السفر إلى بلده تونس فمنعه الوزير من ذلك خشية أن يمر فى طريقه بعدوه أبى حمو أمير تلمسان التى استرجعها بنو عبد الواد يومئذ ؛ فاستغاث ابن خلدون بمسعود بن ماسى زميل الوزير عمر وصهره فأغاثه وما زال بعمر ، حتى أذن له فى السفر بشرط أن يجانب تلمسان وألا يذهب إليها بأى حال ومن أى طريق . فاختار ابن خلدون الرحلة إلى الأندلس . وهنا يحدثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده ، فيقول لنا إنه صرفهم إلى أخوالهم فى قسنطينة . واذًا فقد كان ابن خلدون يومئذ متزوجا وكان له أولاد . ولم يقل لنا من قبل إنه تزوج ، ولا نعرف تاريخ زواجه بالتحقيق . غير أنا نعتقد أن

هذا الزواج كان فى سنة ٧٥٤ هـ ، أعنى قبل ذلك بعشرة أعوام ، فى الوقت الذى كان يتجوّل فيه فى المغرب الأوسط على أثر مغادرته لتونس سنة ٧٥٣هـ ؛ وكان عندئذ يقيم ببجاية على مقربة من قسنطينة ، وفق ما أسلفنا . وسنرى أن ابن خلدون يتتبع منذ الآن أسرته بالذكر ، فيشير الى تنقلاتها معه فى مختلف المواطن ؛ بيد أنه لا يقدّم إلينا عنها أو عن ولده أو حياته المنزلية أى تفصيل آخر .

الفصل الثالث

رحـــلة الأندلس

محمد بن الأحمـر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب . نكبة ابن الأحمـر ووفوده مع وزيره الى بلاط فاس . قصيدة ابن الخطيب فى استنهاض ملك المغرب لنصرة ملكه . ابن الخطيب وابن خلدون . استرداد محمد ابن الأحمر لعرشـه ورده ابن الخطيب الى وظائفه . سـفر ابن خلدون الى غرناطة . توثق الصلة بينه وبين بن الأحمر . إرساله سفيرا لملك قشتالة . رواية ابن خلدون عن زيارته لإشبيلية موطن أجداده . فتور العلائق بينه وبين ابن الخطيب . مغادرته للاندلس .

وكان ملك غرناطة (الأندلس) فى ذلك الحين محمد بن يوسف ابن اسماعيل بن الأحمـر النصرى . ولى الملك عقب مقتل أبيـه السلطان يوسف أبى الحجاج سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤ م) . وكان حَدَثا ضعيفا فاسـتبد حاجبه أبو النعـيم رضوان بشئون الدولة ؛ وكان من وزرائه لسان الدين محمـد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس وشعرائهـا يومئذ ، وكان وزيرا لأبيه من قبـل . وكان السلطان أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبى سالم وباقى أخوته ونفاهم إلى الأندلس كما قدمنا ، فأكرم السلطان محمـد مثواهم ، وأحكمت بينـه وبين السلطان أبى سـالم صداقة متينة . فلما توفى السلطان أبو عنان ، واسترد أبو سالم عرشـه فى شعبان سنة ستين ، كانت الصـلة بين الأميرين أوثق ما يكون . بيـد أنه لم تمض أسابيع قلائل على جلوس أبى سالم ، حتى نكب صديقه السلطان محمد وفقد

عرشه فى أواخر رمضان سنة ستين . وكان أخوه اسماعيل يؤازره جماعة من الزعماء فى مقدمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله . فكان أبو عبد الله يدعو لاسماعيل سرا ، ويترقب الفرص للوثوب بمحمد . فانتهز فرصة غيابه ذات يوم عن غرناطة ، واستولى على حصن الحمراء فى جمع من أتباعه ، وقتل الحاجب رضوان ، ونادى باسماعيل أخى السلطان ملكا مكانه . ففر محمد إلى وادى آش ، واعتقل وزيره ابن الخطيب (١) ؛ وعلم أبو سالم بمحنة صديقه ، ورعى له عهد الصداقة والوفاء فأرسل الى الأندلس سفيرا يسعى لدى حكومة غرناطة فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل الى المغرب . فنجح السفير فى مهمته ، وعاد الى المغرب صحبة السلطان محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة

---

(١) لسان الدين بن الخطيب ، هو محمد بن عبد الله بن سعيد من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى . ولد بلوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ودرس دراسة حسنة ، وبرز فى النظم والإنشاء . ودرس الطب والفلسفة ؛ وخدم سلاطين غرناطة منذ حداثته فتولى ديوان الكتابة ثم الوزارة للسلطان أبى الحجاج ثم تولى الوزارة لولده محمد ، وشاطره محنته ونفيه ؛ فلما استرد عرشه عاد الى سابق مراتبه ، واستبد بشئون الدولة حينا ؛ فلما أخذ نجمه فى الأفول ، ونفوذه فى الضعف ، نزح الى المغرب الأقصى واستظل بلواء سلطانها ؛ ولكن خصومه سعوا الى هلاكه ، وما زالوا به حتى اتهم بالزندقة والكفر فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) وله ثبت حافل من الآثار أشهرها : الإحاطة فى أخبار غرناطة . تاريخ الدولة النصرية . ريحانة الكتاب . السحر والشعر . الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرى صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

إحدى وستين[1]) واستقبلهما أبو سالم فى فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وعرشه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

* * *

ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر نرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

* * *

ومنها :

وأنت الذى تدعى اذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى اذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... ففى ضمن ما تأتى به العزّ والأجر[2]

وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل . ويقول لنا إن ابن

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث — تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب ص ١٠٨ وما بعدها ، وابن خلدون فى كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) والقصيدة طويلة فى نحو ثمانين بيتا وقد ورد نصها كاملا فى الكتابين السالفين .

الخطيب أبكى سامعيه تأثرا وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم كانوا يرتجفون تأثرا لأقواله . وكان هذا أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهات عديدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة ؛ وكان كلاهما شخصية بارزة فى حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلبا بين الظفر والمحنة ؛ وكان كلاهما وزير ومستبد ومستشار لأمراء عصره ، ومحرض لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى كان يشغله ابن الخطيب فى الأندلس ؛ وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى كان يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة ، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ؛ وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله . وقد ترجم كل منهما الآخر ؛ وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ؛ فيقول لنا ابن خلدون فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبُعْد همته فى الإدارة والحكم[1] ، ويصف ابن الخطيب ، ابن خلدون فى ترجمته إياه بأنه : « جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل

(١) وردت هذه الترجمة خلال حديث ابن خلدون عن حوادث الأندلس والمغرب — فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ ومابعدها — وراجع حديث ابن خلدون عن مصرع ابن الخطيب ج ٧ ص ٣٤١ .

المجـد، وقور المجلس، عالى الهمـة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوى الجأش، طامح لقنن الرياسـة، خاطب للحظ، متقدم فى عدة فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث كثير الحفظ، صحيح التصور ...» . [١] ويبدى كلا الرجلين فيما تبادلا من رسائل، لصاحبه مثل هذا التقدير والإجلال .

وأقام السلطان محمـد فى بلاط فاس حينا ولم يدخر أبو سالم وسعا فى اكرامه . وتجول ابن الخطيب حينا بالمغرب، واستقر بسـلا . وتوثقت بين ابن خلدون وهو يومئـذ من أكابر رجال الدولة و بين الأمير المخلوع روابط المحبة والصـداقة؛ وكان يقوم بخـدمته وقضاء مطالبه؛ فلما سافر الأمير الى الأندلس ليحاول اسـترجاع ملكه تولى ابن خلدون أمر أسرته، ورعاية شئونهـا ومطالبها، وتوفير راحتها . وعقدت أيضا بينه و بين ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد . وحاول السلطان محمـد أن يعمل لاسـترداد ملكه بمعاونة پيدرو القاسى (بتره أو بطره) ملك قشتالة، تنفيذا لاتفاق عقـد بينهما؛ ولكن ملك قشتالة حينما سمع بمصرع السلطان أبى سالم، أبدى فتورا فى التنفيذ، فاستغاث محمد عندئذ بالوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب، ووسط لديه ابن خلدون، وكانت له يومئـذ لديه حظوة، فى أن يقطعه إحدى مدن الأندلس المغربية، ليتخذها قاعدة للعمل والتأهب . فأقطعه رندة وأعمالها . وما زال يدبر أمره، حتى اسـتعاد ملكه

(١) وردت هذه الترجمـة فى كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة» . ونقلها المقرى فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

من أيدى خصومه ، ودخل غرناطة ظافرا فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ، واستقدم اليه أسرته من فاس واستدعى وزيره ابن الخطيب وردّه الى سابق مراتبه ونفوذه .

ثم وقع الجفاء بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، فاعتزم الرحلة إلى الأندلس كما قدمنا . وإذ كانت بينه وبين سلطان الأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له عليهما أياد لاتنسى ، فإنا نستطيع أن نتصور العوامل التى دفعته إلى تلك الرحلة ، والآمال التى كان يعلقها عليها . فقصد إلى سبتة فى أوائل سنة ٧٦٤ هـ ، ثم جاز منها إلى الأندلس ، وكتب إلى السلطان وابن الخطيب بمقدمه . ولما أشرف على مرج غرناطة تلقى رسالة رقيقة من ابن الخطيب يهنئه فيها بالقدوم . ووصل إلى غرناطة فى الثامن من ربيع الأول ، فاهتم السلطان لمقدمه ، واحتفى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه فى أهل مجلسه ، وقربه اليه ، وآثره بصحبته وأسماره . وعامله ابن الخطيب بمنتهى الإكرام والرعاية . وفى العام التالى ، أعنى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان سفيرا عنه الى پيدرو القاسى (بترة أو بطرة) ملك قشتالة[1] ، ومعه هدية فخمة ، لإتمام عقد الصلح وتنظيم العلائق بينهما . فقصد ابن خلدون اليه فى إشبيلية حيث كان يقيم يومئذ ، وتلقاه ملك قشتالة بالترحيب والإكرام . وهنا يقول لنا ابن خلدون ، إنه

(١) هو پيدرو أو بطرس القاسى ملك قشتالة ولد سنة ١٣٣٤ وتوفى سنة ١٣٦٩ ، وتولى العرش بعد وفاة أبيه الفونسو الحادى عشر سنة ١٣٥٠ ، وقد اشتهر بصرامته وطغيانه وبطشه .

عاين آثار أسرته باشبيلية وقد كانت كما رأينا منزل بنى خلدون وفيها سطع نجمهم حينا ؛ و إن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ؛ وعرّفه به و بمكانته طبيب يهودى فى بلاطه يدعى ابراهيم بن زرور ، وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل حين استدعاه لمعالجته ؛ ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ ان يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليردّ اليه تراث أسرته بإشبيليه ولكنه أبى . ولا ريب أن ابن خلدون كان أذكى من أن يعتقد أن ملك قشتالة كان جادّا فى عرضه . وأدّى ابن خلدون مهمته بنجاح ، و وهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان ؛ وأقطعه السلطان عند عوده قرية البيرة بمرج غرناطة ، فزاد رزقه واتسعت أحواله ، واستأذن السلطان فى استقدام أسرته من قسنطينة ، فبعث السلطان فى استقدامها . وعاش مدى أشهر أخر مع أسرته فى رغد وطمأنينة . ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب وسعايته فى ذلك من فتوره و إعراضه ؛ وكان الوزير يخشى بلا ريب منافسته ومشاريعه . وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق للبقاء موضع ، ووصلته فى الوقت نفسه رسالة من صديقه الأمير أبى عبد الله محمد أمير بجاية بأنه استرد ملكه ، وأنه يرغب فى قدومه ، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ واستأذن السلطان فأذن له ، وزوده بأعطيته ، وشيعه معززا مكرما ؛ فغادر الأندلس ، و ركب البحر من ألمرية إلى بجاية فى منتصف سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) .

الفصل الرابع

ذروة المغامرة

أبو عبد الله محمد أمير بجاية . استعادته لملكه واستدعاؤه لابن خلدون . تولى ابن خلدون الحجابة المطلقة فى بجاية . استيلاء أبو العباس أمير قسنطينة على بجاية ومصرع الأمير محمد . انضواء ابن خلدون تحت لواء الظافر . الوحشة بينه وبين أبى العباس وفراره الى بسكرة . المغرى الأخلاق لهذه الحوادث . استدعاء أبو حمو سلطان تلمسان لابن خلدون . اعتذاره وقيامه بالدعوة له . السلطان عبد العزيز المرينى يفتتح تلمسان . اتصال ابن خلدون به وقيامه بدعوته . قدوم ابن الخطيب الى المغرب . سفر ابن خلدون الى فاس . تطور الحوادث فى المغرب وقيام السلطان أبو العباس احمد . الدسائس حول ابن خلدون . سفره الى الأندلس . المطالبة بتسليمه . مصرع ابن الخطيب

لم ينس أمير بجاية إبان ظفره صديقه أيام محنته ، ولم ينس أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب الأسر والسجن . فكتب اليه يستدعيه ليشاركه فى أمره وليحقق له الوعد الذى قطع على نفسه . وكانت بجاية من قبل من أعمال مملكة إفريقية (تونس) خاضعة للدولة الحفصية . فلما غلب على تونس الأمير أبو يحيى اللحيانى سنة ٧١١ هـ كما قدمنا ، أقطع الثغور لأولاده فتولى بجاية ابنه الامير أبو زكريا ولبث فى حكمها حتى وفاته سنة ٧٤٦ هـ . وخلفه فى حكمها ولده الأكبر الأمير أبو عبد الله محمد . ولما زحف السلطان أبو الحسن على إفريقية خلع الأمير محمدا فيمن خلع من أمراء الثغور ونفى إلى المغرب . ولما ثار السلطان أبى عنان على أبيه أثناء غيبته

فى إفريقية ردّ الأمراء المخلوعين وفيهم الأمير محمد إلى ثغورهم لكى يعترضوا أباه عنـد العودة . فاستقر محمد حينا آخر فى حكم بجاية . ثم توفى السلطان أبو الحسن ، وتم الأمر لأبى عنان . فانتزع بجايه من صاحبها كرة أخرى وأرغمه على النزول عنها اليه ونفاه إلى المغرب ، فأقام هنالك حتى قدم ابن خلدون على السلطان أبى عنان ودخل فى خدمته . وعندئذ توثقت أواصر الصداقة بين ابن خلدون والأمير المخلوع لما كان بين أسرتيهما من سابق المودة ؛ واتهم ابن خلدون بالتآمر مع صـديقه ، و بأنه يدبر له سبل الفرار لكى يسترد إمارته ثم يوليه حجابته ، واعتقل مدى عامين حتى وفاة السلطان أبى عنان . فلما تولى السلطان أبو سالم سعى ابن خلدون لإطلاق الأمير محمد و باقى الأمراء المنفيين إلى ثغورهم ، وكتب له الأمير محمد بخطه عهدا بأن يوليه حجابته متى استرد سلطانه . ثم سار الأمير إلى بجاية وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه فى سـنة ٧٦٥ ، واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الأصغر ، و بعث إلى ابن خلدون وهو بالأندلس يستدعيه ليوليه حجابته وفاء بعهده . فاستجاب اليه وكان قد اعتزم الرحيل من الأندلس كما قدمنا . ووصل الى بجاية فى منتصف سنة ست وستين . فاستقبله أمير بجاية وأهلها أجمل اسـتقبال . ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه فى تلك العبـارة الرنانة : « فاحتفل السلطان بقدومى ، وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى ، ويقبـلون يدى وكان يوما مشهودا »

وتولى ابن خلدون فى الحال منصب الحاجب لسلطان بجاية ،

وقد كانت الحجابة يومئذ فى الدول المغربيـة حسب تعريفه هى: «الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه فى ذلك أحد» . واستبد بشئون الدولة، ومضى يدبر الأمور بعزم ويعالج الفتن القائمـة بحزم وذكاء، ويتجول بين القبائل الجبليـة يستخلص منها الجباية قسرا بقوة دهائه ونفوذه . ولكن الخصومة ما لبثت أن نشبت بين أمير بجاية وبين ابن عمه السلطان أبى العباس صاحب قسـنطينة . وكان أبو العباس يتطلع الى امتـلاك بجاية ويثير على أميرها القبائل والبطون المجاورة . ويقول لنا ابن خلدون أيضا إن الأمير محمدا لم يحسن السيرة فى أهل بجاية بل كان يرهقهم ويشدد الوطأة عليهم حتى انحرفوا عنه واعتزموا الخروج عن طاعته إجابة لتحـريض أبى العباس . وفى سـنة سبع وستين قصد أبو العباس فى جمـوعه الى بجاية ، وقاتل الأمير محمـدا بظاهرها وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافرا . وكان ابن خلدون أثناء ذلك يلزم القصر فى بجاية، فلما كانت الدائرة على محمد خاطبه بعض الزعماء فى تولى الأمر والدعوة لأحد أبناء السـلطان، فأبى وخرج كعادته الى تحية الظافر والانضواء تحت لوائه؛ وسلم ابن خلدون المدينـة الى أبى العباس، فأكرمه وأقره حينا فى وظيفته؛ ولكن ابن خلدون شعر عما قليل بانحرافه فانصرف بإذنه الى أحد الأحياء القريبة . ثم رأى أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه، ففر ابن خلدون الى بسكرة فقبض أبو العباس على أخيه الأصغر يحيى، واعتقله ببونه، وفتش بيوتهم وصادر أموالهم .

وهكذا اختتمت تلك المغامرة التى كان ابن خلدون مدبرهـا

منذ البداية ، وكانت من نفثات أطماعه ؛ وكانت كسابقاتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الأثرة ، ونكران الصنيعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها ينافى الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق فى خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعية ؛ وكان يسيّره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكيافيللى فيما بعد ، وتصوره فى أميره الأمثل ؛ ذلك الروح الجرئ الثابت الذى يقتحم كل ضعف انسانى ، ويحمل توا الى الغاية المرغوبة بأى الوسائل والخطط . ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا فى مكان آخر فى حديثه عن أمير بجاية التعس : « فلما استدعانى هذا الأمير أبو عبدالله بادرت الى امتثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير »[1] . ولكن الذى لاريب فيه هو أن ابن خلدون كان يجوز فى حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهيأها منذ بعيد ؛ ولا ريب أن مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا أن أنكره الظافر و رغب عن خدمته تلك المرة .

وتحول ابن خلدون عندئذ الى بِسْكِرَة لصداقة بينه و بين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبو حمو موسى ابن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهراً لأمير بجاية المقتول . وكان يطمح الى فتح بجاية . فلما بلغة مقتل صهره بعث قواته الى

(١) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٧٧ .

بجاية تحاول أخذها ، ولكنها هزمت هزيمة شنيعة ؛ وكتب أبو حمو على أثر ذلك الى ابن خلدون يستدعيه من بسكرة ليوليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذه فى بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل اليه بالفعل مرسوم الحجابة ؛ وكتب اليه يرجوه فى السعى لبث دعوته واستمالة القبائل اليه . فاعتذر ابن خلدون عن قبول الوظيفة تلك المرة ، وأرسل أخاه يحيى ، وكان قد أُطلق سراحه الى سلطان تلمسان نائبا عنه ؛ ولكنه استجاب الى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبى العباس الى جانب خصمه أبى حمو . ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سئمت يومئذ مخاطر المغامرة وأهوال الوظيفة ، وزهدت فى غواية الرتب ، واشتاقت الى الدرس بعد أن هجرته طويلا ؛ فعول على استئناف الدرس والقراءة ، والإعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية . ولكن سنرى أنه يعود الى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السلطانية مرارا أخرى .

وفى ذلك الحين وصلته رسائل من صديقه ابن الخطيب يعرب فيها عن شوقه وحبه ، ويحدثه بأخبار الأندلس ، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الجديدة . فرد عليه ابن خلدون ، يعرب عن مثل شوقه وحبه ، ويحدثه بأخباره ومحنته فى بجاية ، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت اليه[1] . ويبدو فى هذه الرسائل ما يحمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والاجلال .

ولبث ابن خلدون فى بسكرة يبث الدعوة لأبى حمو ويحشد

(١) راجع هذه الرسائل فى كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ .

القبائل فى جانبه ، و يؤلبها على أبى العباس ؛ و يعمل من جهة أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبى حمو وأبى إسحاق سلطان تونس . وكان بينه و بين أخيه أبى العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبى حمو بخروج ابن عمه أبى زيان عليه ، فضاعف ابن خلدون همته فى استمالة القبائل اليه ؛ ثم خرج مع صاحب بسكرة و باقى الزعماء الذين استمالهم فى قواتهم لنصرة أبى حمو ، وكان يتهيأ لمحاربة خصومه (سنة ٧٧١ هـ) ولكن أباحمو هزم امام خصومه مرة أخرى وارتد ابن خلدون الى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل الى جانب أبى حمو ، وأحكام الصلة بينه و بين سلطان تونس .

وفى العام التالى ، سار ابن خلدون فى وفد من الرؤساء لزيارة أبى حمو والتفاهم معه على تدبير الخطة اللازمة . فلقيه بالجزائر ، و بقى لديه مدى حين ، وأنشده يوم الفطر قصيدة تهنئة يقول فيها :

هذى الديار فحيهن صباحا ... وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال ان لم تروها ... عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا ... أن لا يرين مع البعاد شحاحا

ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما تحول عنه الى عدوه ، يؤلب الجموع عليه بعد أن كان يؤلبها لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز ابن الحسن خرج فى جيوشه يومئذ يزمع غزو تلمسان وانتزاعها كرة أخرى من قبضة بنى عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبى سالم سنة ٧٦٢ هـ

كما قدمنا ، وأخذ يولى العرش ملوكا وأحداثا ضعافا من بنى مرين ففى سنة ٧٦٨هـ ولّى السلطان عبدالعزيز بن السلطان أبى الحسن ، وكان أسيرا فى اعتقاله ، وشدد عليه الحجر والاستبداد كعادته ؛ فأنف السلطان لذلك ، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وفتك بذويه ، واسترد السلطة كاملة ؛ ثم خرج بجيوشه للغزو فى تخوم المغرب الأوسط يقصد فتح تلمسان والقضاء على سلطة بنى عبد الواد فى المغرب الأوسط ؛ وكان ابن خلدون يقيم عندئذ فى ضيافة أبى حمو . فلما بلغه مقدم ملك المغرب ، ورأى الطريق الى بسكرة قد سدت فى وجهه ، وسرت الفتنة الى كل ناحية ، خشى العاقبة على نفسه ، واستأذن أبى حمو فى السفر الى الأندلس ، فأذن له وبعث معه برسالة الى ملك غرناطة ، وأسرع ابن خلدون الى مرسى هنين ليركب البحر منها ؛ ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ بجيوشه على تلمسان فغادرها أبو حمو الى الصحراء ليحشد جموعه وأنصاره . ونمى الى ملك المغرب أن ابن خلدون فى هنين وأنه يحمل ودائع لأبى حمو ، فأرسل فى طلبه سرية من الجند ، فدهمته فى المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئا ، وحملته الى السلطان فى ظاهر تلمسان ، فحقق فى شأنه وعنفه على انسلاخه عن بنى مرين وانضوائه تحت لواء أعدائهم ؛ فاعتذر ابن خلدون بما كان بينه وبين الوزير عمر ، وشفع له أكابر الدولة الحاضرين ، ونوهوا بسابق خدماته لبنى مرين ؛ ووعد السلطان بمعاونته على أخذ بجاية حين كاشفه برغبته فى فتحها ، فارتاح السلطان لذلك وأطلق سراحه لليلة من اعتقاله ، فارتد الى مكان فى الصحراء يعرف برباط أبى مدين

ونزل به حينا يشتغل فى عزلته بالقراءة والدرس .

ولما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعدئذ بقليل (سنة ٧٧٢ هـ) استدعى ابن خلدون وعهد اليه بأن يبث دعوته بين القبائل وأن يحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبى حمو، فقبل ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستمالتها لمحاربة صديقه بالأمس، وانتظم فى سلك الحملة التى بعثها السلطان لمطاردة أبى حمو وأخذ يعمل تباعا على سلخ القبائل عن أبى حمو بما كان له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ؛ ولبثت جنود السلطان تقتفى أثر أبى حمو حتى دهمته فى أعماق الصحراء ومزقت معسكره، وفر أبو حمو وآله تحت جنح الظلام، وتخلف ابن خلدون بعدئذ لدى أسرته أياما فى بسكرة، ثم قصد الى السلطان عبد العزيز فى تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواه؛ وأرسله ليعمل على تهدئة بعض الأحياء الخارجة فى المغرب الأوسط وردها الى الطاعة؛ فصدع بالأمر، ولكنه لم ينجح فى مهمته فى تلك المرة، فعاد الى بسكرة واكتفى بمراسلة السلطان. وهنا وصلته الأنباء بمقدم صديقه ابن الخطيب على السلطان فى تلمسان، وقد غادر الأندلس فرارا من بطش سلطان غرناطة بعد مافسدت بينهما العلائق؛ فاستقبله السلطان عبد العزيز أجمل استقبال وأغدق عليه عطفه وعطاءه .

وكتب ابن الخطيب الى صديقه فى بسكرة يقص عليه خبره، ويعتب عليه فيما كان منه فى حقه حين مقامه بالأندلس؛ فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه، ويدفع

عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ويهنئه بنجاته[1] .

ولبث ابن خلدون مقيما فى بسكرة، والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة فى جميع نواحيه . فلما حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أبى بكر بن غازى، عهد الى ابن خلدون باستمالة القبائل كرة أخرى، فأدى ابن خلدون المهمة، وقصد الى الوزير بمكانه بالصحراء فى شيوخ القبائل الموالية، ونظم معه برنامج العمل، ثم عاد الى بسكرة، ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لأنه آنس فى نفس أميرها تغيرا ونزوعا الى الثورة، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان فى تلمسان، ولكنه ما كان يصل الى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء بوفاة السلطان وتولية ابنه السعيد مكانه فى كفالة الوزير ابن غازى وقفول البلاط كله الى فاس، (سنة ٧٧٤ هـ)، فعول عندئذ على اللحاق بفاس واخترق الصحراء مع بعض البطانة والجند . واعترضت القافلة أثناء مسيرها عصابة من الأشقياء بتحريض أبى حمو الذى عاد فاستولى على تلمسان على أثر وفاة السلطان، ونهبت متاع المسافرين ؛ ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة، ووصل أخيرا الى فاس فى حال سيئة، فأكرمه الوزير ابن غازى وعمره برعايته، وأقام فى فاس موقرا مبجلا .

وفى ذلك الحين ساءت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة . وكان الوزير ابن الخطيب قد التجأ كما قدمنا الى بنى مرين فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر الى بلاط فاس

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٣٤ — ٤٣٦

إبعاده وتشريده فأبى الوزير ابن غازى ، وأطلق بعض اللاجئين من أسرة بنى الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس ؛ وأطلق ابن الأحمر زعيمين من زعماء المغرب كانا بالأندلس وهما عبد الرحمن بن يفلوس من أمراء بنى مرين والوزير مسعود بن ماسى لمناوأة حكومة فاس ، وبعثهما فى أسطوله الى شواطئ المغرب وحاصر جبل طارق وهى يومئذ من أملاك بنى مرين . وبعث الوزير ابن غازى جيشا لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد بن عثمان . فاستمالة ابن الأحمر وحرضه على الخروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم وكان يومئذ معتقلا بطنجة ، وزحف لقتال ابن غازى . ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة بقرب مكناسة ، وارتد ابن غازى الى فاس وتحصن بها . فحاصره الخوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس (سنة ٧٧٦ هـ) وعين ابن عثمان لحجابته . واستولى الأمير عبد الرحمن على شمال المغرب تنفيذا للاتفاق المعقود .

وكان ابن خلدون أثناء هذه الحوادث مقيما بفاس ؛ فلما وقع الإنقلاب ، وشى بعضهم فى حقه للحكومة الجديدة ، فقُبض عليه حينا ثم أفرج عنه بسعى صديقه الأمير عبد الرحمن سلطان الشمال . وعندئذ أزمع الرحلة الى الأندلس بعد أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها . ويقول لنا ابن خلدون انه أراد اللحاق بالأندلس طلبا للاستقرار والدرس . والظاهر أن فكرة الإنقطاع الى البحث والتأليف كانت قد اختمرت فى ذهنه يومئذ ، وقد رأيناها تساوره مرارا منذ اضطربت شئون السياسة واكفهر أفق المغرب ، فجاز

البحر الى الأندلس فى ربيع سنة ٧٧٦ هـ تاركا أسرته بفاس . ولقى فى طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبدالله بن زمرك ذاهبا الى بلاط فاس للتهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقها به . ولكن ابن خلدون لم يحسب حسابا لدسائس خصومه ، ولم يدر بخلده أنه سيغدو موضعا للمساومة فى مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شرا من استقراره بالأندلس وأبى أن تلحق به أسرته لما نمى اليه من أن ابن خلدون على صلة مع الأمير عبدالرحمن وأنه يحرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى الى فاس ليسعى فى تنفيذ عهد شائن قطعه سلطان المغرب الجديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لما كان يعتقده ابن الأحمر من أن وزيره السابق كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلب الى ابن الأحمر تسليمه بحجة أنه كان يسعى لإنقاذ ابن الخطيب ، فأبى ابن الأحمر ، ولكنه ارتضى أن يجيز ابن خلدون الى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون سعى لإنقاذ صديقه . وكان ابن الخطيب حين اضطرام الثورة قد لجأ الى البلد الجديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازى ؛ فلما استولى السلطان الجديد على فاس قبض عليه . وكان يوسف فى سجنه حين قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . وذهب المفكر والكاتب والسياسى العظيم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، اذ اتُهم بالزندقة فيما ورد ببعض رسائله ، فعذّب وأفتى بعض الفقهاء السفلة بقتله

فقتل خنقا فى سجنه وأحرقت جثته (سنة ٧٧٦ هـ — ١٣٧٤م)[1] .
وقد نقل الينا ابن خلدون هذه الأبيات المؤثرة من شعر كان ينشده ابن الخطيب فى سجنه يرثى به نفسه :

بعدنا و إن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... بكهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... عزين فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

الفصل الخامس

العزلة والتأليف

عود ابن خلدون الى المغرب وعود الصلة بينه وبين أبي حمو . التجاؤه الى أحياء عريف . بدؤه بكتابة مؤلفه التاريخي . كتابة المقدمة وتاريخ العرب والبربر . سعيه الى العودة الى تونس . السلطان أبو العباس يأذن له . عوده الى وطنه . اتمامه لمؤلفه ورفعه إياه الى السلطان . قصيدته يوم الإهداء . الدسائس من حوله . خروجه مع السلطان في الحملات الحربية . اعتزامه الرحلة الى المشرق وركوبه البحر . زهده في الحياة السياسية

وهكذا كاد القدر يجمع بين الصديقين لآخر مرة في ظروف مماثلة، وكاد ينكبهما بمحنة مشتركة . ولكن ابن خلدون كان أسعد حظا من صديقه إذ اكتفى سلطان غرناطة بأن يقصيه عن أرضه وأن يرده الى إفريقية . فنزل في مرسى هنين حائرا جزعا لا يعلم أنى يقصد . وكان أخوه يحيى قد عاد الى خدمة أبي حمو أمير تلمسان ، ولكن أبا حمو كان ناقما عليه أيما نقمة لما فعله في حقه مرة بعد مرة، فتركه شريدا في هنين . ثم شفع في أمره صديقه محمد بن عريف من رؤساء بني عريف ، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن في قدومه الى تلمسان ، فقدمها في عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وأراد أن ينقطع للدرس والقراءة . ولكن أبا حمو انتدبه مرة أخرى ليدعو له بين القبائل ؛ فاضطر ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغما . ولكنه كان على ما يظهر

قد عاف عمار السياسة نهائيا، فما كاد يغادر تلمسان حتى ولى شطر قبلة أخرى، وسار الى أحياء بنى عريف فنزل لديهم، ولحقت به أسرته بعد قليل من تلمسان، واعتذر له أصدقاؤه لدى السلطان أبى حمو، وأكرم بنو عريف مثواه أيما اكرام، وانزلوه مع أسرته بأحد قصورهم فى قلعة سلامة من أعمال توجين[1]؛ فقطع ابن خلدون فى ذلك المقر النائى المنعزل مدى أربعة أعوام، ونعم لأول مرة بالاستقرار والهدوء المستمر، بعيدا عن غمار السياسة والدسائس السلطانية، ومخاطر التجوال والحملات الحربية، وألفى لأول مرة فرصة واسعة للبحث والدرس .

وفى تلك الفترة الهادئة بدأ ابن خلدون بكتابة مؤلفه التاريخى. وكان يومئذ فى نحو الخامسة والاربعين من عمره، وقد نضجت مباحثه ومطالعاته . وكان قد قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة، متقلبا فى خدمة القصور والدول المغربية، يدرس شئونها ونظمها ويستقصى سيرها وأخبارها، ويجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية متغلغلا بين القبائل البربرية يدرس طبائعها وأحوالها وتقاليدها فى الحياة العامة والحياة الخاصة . وكان ذهنه الخصب، فضلا عن هذه الدراسة العملية، يفيض بثمار الإطلاع الشاسع، الذى كان يجد فى تحصيله كلما سنحت الفرص فى مكاتب المغرب والأندلس . وكانت عزلة مباركة موفقة؛ ففى ذلك المقام النائى المنعزل، كتب ابن خلدون

(١) تقع هذه المنطقة جنوب اقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية .

مقدمة تاريخه، وألهم تلك المباحث والنظريات الخالدة التى تتبوأ مكانة رفيعة بين ثمرات التفكير البشرى، ووهب تراث العربية ذلك الأثر الخالد الذى مازالت تزهو به وتفاخر؛ وانتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته العجيبة لأول مرة فى منتصف سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) واستغرق فى كتابتها خمسة أشهر فقط[١] ثم نقحها وهذبها بعد ذلك. وهو يقول لنا فى دهشة من نفسه وإعجاب بتوفيقه «وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذى اهتديت اليه فى تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها»[٢]. ثم شرع بعد إتمام المقدمة فى كتابة تاريخه، فكتب منه تاريخ العرب والبربر وزناتة أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى والأخيرة حسب النظام الذى انتهى به الينا. ولم يكن فى برنامج ابن خلدون أن يكتب تاريخا عاما للخليقة، بل كان قصده الأساسى أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية، وهو مايشير اليه فى المقدمة بقوله: «وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى إما صريحا أو مندرجا فى أخباره وتلويحا، لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار، لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه، وأن الأخبار المتناقلة لا توفى كنه ما أريده منه»[٣]، ولكنه عاد فعدل برنامجه،

---

(١) راجع ختام المقدمة — ص ٥٣٤

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٤٤

(٣) المقدمة — ص ٢٧

ورأى أن يكتب تاريخا عاما للخليقة . ولما كان ينقصه فى مقامه المنعزل كثير من المراجع الضرورية ، فقد اعتزم العودة إلى وطنه تونس حيث تهيىء له مكاتبها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق . وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) بعد أن أكمل المقدمة والاقسام المتعلقه بتاريخ العرب والبربر

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذى عهدناه من قبل أميرا لقسنطينة ثم انتزع بجاية من يد ابن عمه الأمير محمد وولى ابن خلدون له الحجابة حينا ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه إلى بسكرة ، فاعتقل عندئذ أخاه يحيى فى بونه وصادر أموالهم . ولبث أبو العباس بعد ذلك يتحين الفرص للاستيلاء على تونس ، ولجأ اليه وزيرها ابن تافراكين الذى استبد حينا بشئونها حينما جرده السلطان أبو إسحاق من سلطته ، وأخذ يعمل لمعاونته على تحقيق مشروعه . وفى سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس فى قوات كبيرة واستولى عليها من يد سلطانها الطفل ولد أبى إسحاق ، ثم استولى من بعدها تباعا على جميع ثغور إفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية وطيدة الدعائم . وكانت العلائق سيئة بين السلطان أبى العباس و بين ابن خلدون منذحوادث بجاية أعنى منذ أكثر من عشرة أعوام . فلما اعتزم المؤرخ العودة إلى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، يحمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة ، كتب إلى السلطان أبى العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة ، فرد السلطان بالقبول والصفح والدعوة بالقدوم ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف فى شهر رجب سنة ٧٨٠ واجتاز

الصحراء ومر فى طريقه بقسنطينة فاستراح بها حينا فى ضيافة الأمير إبراهيم ابن السلطان أبى العباس ، ثم قصد إلى السلطان أبى العباس ، وكان يومئذ على رأس جيشه يعمل على إخماد الثورة فى بعض النواحى ، فلقيه بظاهر سوسة ؛ فحياه السلطان أجمل تحية وبالغ فى إكرامه وقربه وشاوره فى أموره . ثم بعثه إلى تونس وأصدر أوامره بتوفير مايجب لراحته من المسكن والمعاش . ونزل ابن خلدون تونس ، وطنه ومسقط رأسه ، لأول مرة منذ فارقها حدثا دون العشرين فى سنة ثلاث وخمسين ؛ واستقدم أسرته من أحياء عريف ، وأقام فى دعة وأمن وسعة عاكفا على الدرس والبحث ، حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر ؛ فقربه اليه واختصه بمجلسه وكلفه بإتمام مؤلفه . وهنا شعر ابن خلدون مرة أخرى بالدسائس القديمة تعمل حوله ، لما آثره السلطان به من الرعاية . وكان محور هذه الدسائس خصمه الفقيه ابن عرفه شيخ الإفتاء . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه الخصومة ، إنه كان يتفوق على ابن عرفه فى المجالس العلمية ، وان تلامذة ابن عرفه هرعوا اليه يتلقون عليه دونه فأحفظه ذلك ، وأخذ يسعى مع رجال البطانة فى حقه لدى السلطان . ولكن هذه السعاية لبثت حينا دون أثر لتمكن منزلته ومقامه .

ولما توفرت لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة ، عكف على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه حتى أتم منه نسخة أولى رفعها إلى مولاه السلطان أبى العباس فى أوائل سنة ٧٨٤ هـ (أوائل ١٣٨٢م) وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة

وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الاسلامية المختلفة[١] ؛ وقد انتهى ابن خلدون فيما كتبه عن أخبار الدول المغربية فى عصره حتى استرجاع السلطان أبى العباس لتوزر فى سنة ٧٨٣هـ[٢] . ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ ، وأضيفت اليها أقسام كبيرة أخرى فى تاريخ الدول الاسلامية فى المشرق ، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنبين بعد .

وفى نفس اليوم الذى رفع فيه ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه للسلطان أبى العباس ، أنشده قصيدة طويلة فى نحو مائة بيت ، يشيد فيها بسيرته وأعماله ، ويستدر عطفه ورعايته ، وينوه بكتابه ؛ وهى من أشهر قصائده ، وهذا مطلعها :

هل غير بابك للغريب مؤمل ... أو عن جنابك للأمانى معدل
هى همة بعثت إليك على النوى ... عزما كما شحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيا ومنتجع المنا ... والغيث حيث العارض المتهلل

ومنها :

ارح الركاب فقد ظفرت بواهب ... يعطى عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم فى الندى ... كالروض حياه ندى مخضوضل
هذا أمير المؤمنين أمامنا ... فى الدين والدنيا اليه الموئل
هذا أبو العباس خير خليفة ... شهدت له الشيم التى لا تجهل
سبق الملك الى العلا متمهلا ... لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا ... يتسابقون الى العلاء وأكمل

(١) راجع كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٤٥ و ٣٤٦
(٢) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٦

ومنها فى ذكر الكتاب :

اليك من سير الزمان وأهله ... عبرا يدين بفضلها من يعدل
صحفا تترجم عن أحاديث الأولى ... درجوا فتجمل عنهم وتفصل
تبدى التبابع والعمالق سرها ... وثمود قبلهم وعاد الأول
والقائمون بملة الإسلام من ... مصر وبربرهم إذا ما حصلوا
لخصت كتب الأولين بجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشى الكلام كأنما ... سرد اللغات بها لنطق ذللوا
وجعلته اسوار ملكك مفخرا ... يبهى الندى به ويزهو المحفل
ولله ما أسرفت فيما قلته ... شيئا ولا الإسراف منى يجمل

على أن هذه الدعة التى تفيأ ابن خلدون ظلالها مدى حين، ما لبثت أن غشيها الكدر . فما زال ابن عرفه وحلفاؤه خصوم المؤرخ فى دسهم وسعايتهم ؛ ولم تثمر هذه السعاية فى حرمان المؤرخ من عطف مليكه ، ولكنها أثمرت فى إزعاجه من طريق آخر . ذلك أن السلطان حينما تأهب للخروج بجيشه لمقاتلة الخوارج عليه فى توزر وأعمالها سنة ثلاث وثمانين ، أمر ابن خلدون بالسفر معه ، فصدع ابن خلدون بالأمر مكرها . وكانت نفسه قد عافت أحداث السياسة ، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما أتمت الحملة أعمالها أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصد الى ضيعته بجوار تونس وأقام بها حتى عاد السلطان ظافرا ، فصحبه الى تونس . ولم تمض أشهر قلائل حتى تأهب السلطان للخروج فى جيشه مرة أخرى . فخشى ابن خلدون أن يعود السلطان الى استصحابه فى حملاته ، وألا يستقر له قرار بعد . فاعتزم عندئذ مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج، يتوسل بها عذرا الى السلطان . فتضرع اليه أن يخلى سبيله وأن يأذن له فى قضاء الفريضة، فأذن، وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى، فكانت الهجرة الأبدية، وخرج الى مرسى السفينة، فى حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودّعونه بين مظاهر الحزن والأسى ، وركب البحر الى المشرق فى منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م).

* * *

وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث، ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة، ولم تكن مما يرضى نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب أعظم سياسى ومفكر عرفته إفريقية[1] والأندلس فى القرن الثامن، وكانت تلك الخلال والمواهب البديعة التى حملته الى ذروة الحوادث، وجعلت منه شخصية بارزة فى تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحرية التى عرفت دائما بقوة الشكيمة وجفاء النزعة، خليقة بأن تهيئ له مكانة رفيعة وطيدة فى دول العصر وقصوره. وقد أنفق بن خلدون ربع قرن فى خوض غمار السياسة ودسائس القصور، وتقلب فى خدمة جميع الدول المغربية، وتمتع مرارا بمزايا الرياسة والحكم، وذاق مرارا محن النقمة ومرارة الإعتقال والأسر وخطر الهلاك، ثم إذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ، ويصبح فإذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول التى تقلب

(١) نستعملها هنا بمعنى المغرب بجميع أقطاره .

فى خدمتها وأسدى اليها أجلّ الخدمات أحيانا ؛ ثم إذا به يجد نفسه فى هذا الملاذ الأخير الذى آوى اليه واستقر فى ظلاله ، موضع السعاية والكيد . وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الخيبة ويلتمس السلوى فى البحث والتأليف ؛ وقد هدأت نفسه المضطرمة بشغف النضال والمغامرة ، وعاف أحداث الساسية ، وأخذ يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التى كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة . وكان ينشد الإستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو أن يطوى مرحلة الحياة فى وطنه ، ويثوى اليه الثواء الأخير الى جانب آبائه وأجداده . ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة ، وأزعجه كيد خصومه فى مقامه الهادئ ؛ وخشى أخيرا عاقبة الكيد والسعاية ، ولم يجد فى تونس ما كان ينشد من هدوء وسكينة ؛ فاضطر أن يلتمس الحج عذرا للرحيل والنجاة ، وأن يودع الأهل والولد ، وأن يغادر الوطن وحيدا فريدا الى حيث لا يعلم ماذا هيأت له الأقدار .

٢

ابن خلدون فى مصر

٧٨٤ — ٨٠٨ هـ : ١٣٨٢ — ١٤٠٦ م

الفصل السادس

ولاية التـــدريس والقضـــاء

مقـدم ابن خلدون الى مصر . وصـفه للقاهرة . جلوسه بالأزهر . اتصاله بالبلاط . ولايتـه التدريس بالمدرسة القمحية . الدرس الأول . ولايتـه لقضاء المـالكية . اضطراب الأفق حوله . حديثه عن القضاء . تعليق الكتاب المصريين على مسلكه . هلاك أسرته فى البحر . عزله عن القضاء وبقاؤه فى منصب التدريس . سفره للحج . ولايتـه للتدريس فى الصرغتمشية . الدرس الأول . تعيينـه شيخا لخانقاه بيبرس . ثورة يلبغا الناصرى وعزل السلطان برقوق . سـقوط يلبغا وعود برقوق الى العرش . تأملات ابن خلدون عن الدول المصرية . انقطاعه للدرس والبحث . سعيه الى عقد الصلة بين بلاط مصر وقصور المغرب .

— ١ —

غادر ابن خلدون تونس فى منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) كما قدمنا ، فوصل الى ثغر الاسكندرية فى يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون إنه قدم الى مصر لينتظم منها فى ركب الحاج وإنه لبث بالاسكندرية شهرا يهيئ العـدة لذلك ، ولكن لم يتح له يومئذ ان يحقق هـذه الغاية ، فقصد الى القاهرة[1] . ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى حجته الظاهرة فى مغادرة تونس ، وكان مقدمه الى مصر ، كما رأينا نوعا من الفرار ، وخيفة البطش والمحنة . وكان يرجو بلا ريب أن

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٢

يقضى أيامه بمصر فى هدوء ودعة، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائما الى مراتب النفوذ والعزة؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، ولبلاطها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أوّل ذى القعدة سنة ٧٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ ؛ فبهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن[1] ، وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فإن المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصحرية المتواضعة ، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحا من الزمن مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم، ومحشر الأمم ، ومدرج الذّر من البشر، وإيوان الاسلام، وكرسى الملك؛ تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ النيل نهر ، ومدفع مياه السماء، يسيقه العلل والنهل سيحه، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه؛ ومررت

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦هـ — ١٣٢٦م فى عهد الناصر بن قلاوون .

فى سكك المدينة تغص بزحام المـارة، وأسواقها تزخر بالنعم ...» .

ولم يكن ابن خلدون نكرة فى مصر، فقد كان المجتمع القاهرى يعرف الكثير عن شخصه وسـيرته؛ وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه وذاعت نسخه الأولى قبل ذلك بقليل فى مصر وغيرها من بلدان المشرق، وأعجبت دوائر العـلم والتفكير والأدب بطرافة مقـدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صـوب . يقول ابن خلدون فى كبرياء وتواضع معا : «وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعونى عذرا»[1] وهذا ما تشير اليه التراجم المصرية؛ فيقول أبو المحاسن بن تغرى بردى فى ترجمتـه لابن خلدون: «واستوطن القاهرة وتصدر الإقراء بالجامع الأزهر مدة، واشتغل وأفاد»[2] ويقول السخاوى: «وتلقاه أهلها (أى أهل مصر) وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتردد عليه، بل تصدر للإقراء بالجـامع الأزهر مدة ...»[3] . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر، والظاهر أنه كان يدرس الحـديث والفقه المـالكى، ويشرح نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول، وغيرها ممـا عرض اليـه فى مقدمته . وكانت هذه الدروس خير

---

(١) كتاب العبر — ج ١ ص ٤٥٢

(٢) كتاب المنهل الصافى لابن تغـرى بردى — نسخة دار الكتب الخطيـة رقم ١١٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠

(٣) كتاب الضـوء اللامع فى أعيان القرن التاسـع عشر للسخاوى — نسخة دار الكتب الفتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ، المجلد الثانى من القسم الثانى، ص ٣٦٧

اعلان عن غزير علمه، وشائق بحثه، وساحر بيانه. وكان ابن خلدون محدثا بارعا رائع المحاضرة، يخلب الباب سامعيه بمنطقه وذلاقته. وهـذا ما يحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه؛ ومنهم المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى الذى سمعه ودرس عليه فقى[1]، وكذا الحافظ ابن حجر؛ فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله: «وكان لسنا، فصيحا، حسن الترسل وسط النظم؛ مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة»[2] ونقل السخاوى عن الجمال البشبيشى أنه «كان فصيحا مفوها جميل الصورة»، وعن الركراكى «ان محاضرته اليها المنتهى»[3].

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب ألباب المجتمع القاهرى، وأن يستثير إعجابه وتقديره؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى. وفى أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجوانى[4] فشمله برعايته، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به؛ وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق، وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤)،

---

(١) نعود الى تقدير المقريزى لشيخه ابن خلدون فيما بعد.

(٢) كتاب أنباء الغمر فى أنباء العمر لابن حجر العسقلانى (نسخة دار الكتب الخطية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٣) الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى، ص ٣٦٩

(٤) هكذا اسمه فى «المنهل الصافى» ولكن السخاوى يسميه «الطنبغا الجوبانى».

فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره؛ يقول ابن خلدون : «فأبر مقامى، وآنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم» وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الإستقرار والمقام الهادئ فى ظل أمير يحميه ويكفل رزقه . ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية، بجوار جامع عمرو وهى من مدارس المالكية، فعينه السلطان فيه . ويعنى ابن خلدون فى تعريفه، بوصف مجلسه الأول فى هذا المعهد، فقد شهده جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده والتفوا حول المؤرخ . وألقى ابن خلدون فى ذلك الحفل خطابا بليغا، يحرص على إيراده بنصه . وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء فى شدّ أزر الدولة الاسلامية، وعن تغلب الدول؛ ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل فى نصرة الاسلام، وإعزازه، ومن همم فى إنشاء المساجد والمدارس، ورعاية العلم والعلماء والقضاة؛ ثم دعا للملك الظاهر، وأشاد بعزمه وعدله وعقله؛ وعطف بعدئذ على نفسه، وما أوليه من شرف المنصب فى تلك العبارة الشعرية : «ولما سبحت فى اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق، وشجرة الملك التى اعتز بها الاسلام تهتز فى دوحه المعرق، وأزهار الفنون يسقط علينا من غصنه المورق ... أولونى عناية وتشريفا، وغمرونى إحسانا ومعروفا، وأوسعوا همتى إيضاحا ونكرتى تعريفا، ثم أهلونى للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ... الخ»[1] .

---

(١) لم يرد وصف هذا المجلس، ولا نص هذه الخطبة فى فصول «التعريف» =

وإنه لمنظر شائق ذلك الذى يقدمة إلينا آبن خلدون عن مجلسه فى ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذى يعتقد أنه أحدثه إذ يقول : « وانفض ذلك المجلس وقد شيعتنى العيون بالتجلة والوقار »[1] . وفى ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون فى كبرياء وثقة من أنه كان شخصية ممتازة تجب إحاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية . ثم كانت الخطوة الثانية فى ظفره بمناصب الدولة، وتعيينه قاضيا لقضاة

= المطبوعة الملحقة بتاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) . ولكنهما وردا فى نسخة خطية أتم من التعريف تحفظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٠٩ م تاريخ) ص ١٠٨ — ١١٠ ؛ ونسخة التعريف المتداولة تقف فى ترجمة المؤرخ والتعريف به عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ (راجع كتاب العبر — طبعة بولاق ج ٧ ص ٤٦٢) حيث يختتم ابن خلدون فصول التعريف عن نفسه . ولكن نسخة دار الكتب الخطية التى ذكر فى نهايتها أنها نقلت عن نسخة أصلية للمؤلف تحتوى بعد ذلك على عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون فى مصر، كتبها باسهاب عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب، وعن بعض حوادث مصر الداخلية يومئذ، ثم سفره الى الشام فى ركب الملك الناصر فرج، ولقائه ملك التتار تيمورلنك فى دمشق وما دار بينهما من الأحاديث ثم عوده الى مصر . ويتخلل ذلك كله تعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته فى المقدمة . ويصل ابن خلدون فى رواية حوادث حياته هذه حتى سنة ٨٠٧ هـ . أعنى قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط . وتشغل هذه الفصول فى النسخة الخطية المذكورة نحو أربعين صفحة كبيرة (من ص ١٠٧ حتى النهاية) . وسنعود الى الكلام عن «التعريف» فى فصل خاص .

(١) نسخة «التعريف» الخطية — ص ١١٠

المالكية فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦هـ (أغسطس ١٣٨٤م)[١] مكان القاضى المعزول جمال الدين بن خير السكندرى . وكان ارتفاعه إلى هذا المنصب الذى هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة إيذانا بوثوب العاصفة من حوله ، واضطرام تلك الخصومات التى كدرت صفو مقامه ، وأدالت نفوذه ، واقتلعته من المنصب غير مرة . يقول ابن خلدون فى سخرية : « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية ، فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين أمرائه ، فتفاديت من ذلك ، وأبى إلا مضاءه »[٢] . وقد عرف ابن خلدون هذه « النزعات الملوكية » ، وعرف أنها تبطن من الشر والنقم فى معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم . ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه إلى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط ، وإنما اختاره السلطان كما يقول ، « تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره » .

— ٢ —

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن

(١) يذكر ابن خلدون أن تعيينه فى هذا المنصب وقع لأول مرة فى رجب سنة ٧٨٦ . ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان فى جمادى الآخرة (السخاوى فى الضوء اللامع ؛ وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى كل فى ترجمته لابن خلدون — والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أنه بدأ بمباشرة وظيفته فى رجب ، وأنه يجعل من التعيين وبدأ العمل واقعة واحدة .

(٢) نسخة التعريف الخطية — ص ١١١

حادثا عاديا . فقد كان أجنبيا ، وكان تقدّمه فى حظوة السلطان ، وفى نيل المناصب ، سريعا . وكانت مناصب التدريس والقضاء دائما مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ؛ ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . واذاً فقد تولى العلامة المغربى منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد . وجلس بمجلس الحكم فى المدرسة الصالحية بحى بين القصرين ؛ فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء ، كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة ؛ وانه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض . يقول : « فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمنى عليه من أحكام الله لا تأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة ؛ مسويا بين الخصمين ، آخذ الحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين ؛ جانحا الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر ، والطيب متلبسا بالخبيث ؛ والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الإعتصام بأهل الشوكة ؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ،

معلمون للقرآن وأئمة للصلوات ؛ يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ؛ ويقسمون الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة ، والتوسل لهم ؛ فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال ... » ثم يعدد نواحى الفساد التى شهدها ، وجد فى إصلاحها وقمعها ، وكيف مضى فى سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافا لما اصطلح عليه زملاؤه القضاة من قبولها ، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته جميع الألسن وكثرت فى حقه السعاية لدى البلاط[١] .

وهذا التعليل الذى يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرام الخصومة حوله ، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق . بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره . فيقول أبو المحاسن مثلا مشيرا الى ولايته للقضاء : « فباشره بحرمة وافرة ، وعظمة زايدة ، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان ، فأخذوا فى التكلم فى أمره ... »[٢] . ويقول ابن حجر وينقله السخاوى : « فتنكر (أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عيبه عليه فى الجملة ، وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، وشبهة الزج ،

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ .
(٢) المنهل الصافى — ج ٢ ص ٣٠١ .

فإذا غضب على إنسان قال زجوه ؛ فيصفع حتى تحمر رقبته»[1] .
وفيما ينقل السخاوى قصد الى التعريض والانتقاص . وسنرى أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد فى نقده وتجريحه ؛ ولكن فى قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر فى قضائه عن نزاهة وحزم وصرامة ؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حينما يقول عنه فى موضع آخر: «ولم يشتهر عنه فى منصبه إلا الصيانة» .

انقضت العاصفة على ابن خلدون اذاً لأشهر قلائل من ولايته ، وكثر السعى فى حقه والإغراء به حتى « أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة» على حد تعبيره ، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف ومؤازرة . واصابته فى ذلك الحين نكبة أخرى هى هلاك زوجه وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق أسرته به ؛ ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس ، فتوسل الى السلطان الظاهر أن يشفع لديه فى تخلية سبيل أسرته ففعل ، وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر . ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة فى قوله : «ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد . وصلوا من المغرب فى السفين ؛ فأصابها قاصف من الريح ، فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب» . ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء ، أو بعبارة أخرى ، حتى عزل . بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا

(١) ابن حجر فى رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط دار الكتب) فى ترجمة ابن خلدون ؛ والسخاوى فى الضوء اللامع المجلد الثانى من القسم الثانى ص ٣٦٧ .

العزل جاء محققا لرغبته إذ يقول : « وشملتنى نعمة السلطان أيده الله فى النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلى من هذه العهدة التى لم أطق حملها ، ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها ، فردها الى صاحبها الأول ، وأنشطنى من عقالها ، فانطلقت حميد الأثر مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء ، تلحظنى العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال فى بالعودة » والخلاصة ان ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا فى المجتمع القاهرى ، وانه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد اننا سنرى ، حسبما يشير فى قوله المتقدم ، انه كان يُرمى بجهل الأحكام والإجراءات وبأنه لم يكن بذلك أهلا لتولى القضاء ، وبانه كان مشغوفا بالمنصب أشد ما يكون حرصا عليه .

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة فى السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م) ، أعنى لنحو عام فقط من ولايته ، فانقطع إلى الدرس والتأليف كرة أخرى

على أن هذا العزل لم يكن إيذانا بسخط السلطان ونقمته ، فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضا لتدريس الفقه المالكى بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حىّ بين القصرين (المدرسة الظاهرية البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى خطابا بليغا يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره فى تواضع ظريف . واشتغل بالدرس فى المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان

وغمره بعطائه . وغادر القاهرة فى منتصف شعبان، وقصد الى الحجاز بطريق البحر، ثم عاد بعد أداء الفريضة، بطريق البحر أيضا حتى القُصير، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة فى جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ) ؛ وقصد السلطان توا وأخبره بأنه دعا له فى الأماكن المقدسة، فتلقاه بالعطف والرعاية. ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش[١]، فولاه السلطان إياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية؛ وجلس للتدريس فيها فى المحرم سنة إحدى وتسعين، وألقى خطاب الإفتتاح كعادته فى حفل فخم، وأعلن أنه قد قرر للقراءة فى هذا الدرس كتاب الموطأ للإمام مالك، ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول فى ذلك اليوم ، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذيوع مذهبه، ثم يقول لنا فى كبريائه المعهود : «وانفض ذلك المجلس، وقد لاحظتنى بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت أهليتى للمناصب القلوب، وأخلص النجا فى ذلك الخاصة والجمهور »[٢] .

— ٣ —

ثم عين المؤرخ فى وظيفة أخرى هى مشيخة (نظارة) خانقاه بيبرس، وهى يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجىء الصوفية[٣]، فزادت جرايته ، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق، بطلها ومدبرها

(١) كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولونى على مقربة من القلعة .

(٢) التعريف (النسخة الخطية) — ص ١٢١

(٣) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع فى طريق باب النصر على مقربة منه .

الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ؛ وكانت نظم البلاط القاهرى وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والخيانات مما يسمح بتكرار هذه الفتن ؛ وكان يلبغا الناصرى نائب السلطنة من قبل ، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان ؛ وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه ؛ ولكنه استطاع فى فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤) أن يظفر بالعرش دونه ، وأن يجرده من سلطته ونفوذه ، وأن يقصيه الى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا ، فسار الى القاهرة فى أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه ، ففر من القلعة ، ودخل يلبغا الناصرى القاهرة ، وأعاد الصالح حاجى السلطان المخلوع الى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجينا الى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١) . ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش ، فقبض على الناصرى ، وسار الى دمشق لمحاربة برقوق الذى استطاع أن يفر من سجنه ؛ فهزمه برقوق وعاد الى القاهرة ظافرا منصورا ، واسترد عرشه فى صفر سنة ٩٢ ، لبضعة أشهر فقط من عزله . ويخصص ابن خلدون فى «تعريفه» فصلا لهذه الحوادث[1] ، ويمهد له بشرح فلسفى اجتماعى يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها ، ثم طغيان الحضارة والرفاهية عليها ، وخروج الأقوياء منها ، وبثهم فيها روحا جديدا من القوة ، وتكرر هذه الظاهرة ، ثم يطبق نظريته على دول المماليك المصرية منذ صلاح الدين ، ويقص تاريخها باختصار . وهنا

(١) راجع هذا الفصل فى التعريف (النسخة المخطوطة) ص ١٢٢ وما بعدها — وراجع خطط المقريزى (بولاق) ج ٢ ص ٢٤٢

يبدو ابن خلدون كما يبدو فى مقدمتـه ، ذلك الفيلسوف الاجتماعى الذى يعنى بتعليـل الظواهر والكائنات ، واستقرائها فى حوادث التـاريخ .

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذى يتمتع بعطفه ورعايته . فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش ردت اليه . يدل على ذلك قوله فى التعليق على عود الظاهر : «ثم أعاده الى كرسيه للنظر فى مصالح عباده ، وطوقه القلادة التى ألبسه كما كانت ، فأعاد لى ما كان أجراه من نعمته»[1] .

ولبث ابن خلدون على ذلك أعواما ينقطع للبحث والدرس . وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة ، حتى مستهل سنة سـبع وتسعين (٧٩٧) ، فى الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخـه . ولكنه يمضى فى هذا التعريف مراحل أخرى ، فى النسخة المخطوطة التى أتينـا على ذكرها ؛ ويفصـل حوادث حيـاته حتى مختتم سـنة ٨٠٧ ، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر . والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلا وإسهابا حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمـة ، ولهذا آثرنا الرجوع اليهـا الى جانب النسـخة المتداولة فى كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل . غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته .

ليس فى حيـاة ابن خلدون فى هذه الفترة ما يستحق الذكر

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٦٢

سوى سعيه الى عقد الصلات بين البلاط القاهرى وسلاطين المغرب . ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية ، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن ملوك المغرب ؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين ؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية ؛ ثم يعطف على مساعيه فى عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس ؛ وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على اهداء ملك مصر ، فأرسل اليه هدية من الجياد النادرة ، ولكنها غرقت مع السفينة التى كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا . ورد الملك الظاهر بإهداء سلطان تونس ؛ ثم بعث سنة تسع وتسعين الى المغرب ليشترى عددا من الجياد ، فزود ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية . ولكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر ارسالها ؛ وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب ، ومنها خيل مسومة ، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما « تناول بين هؤلاء الملوك من السعى فى الوصلة الثابتة على الأبد » .

الفصل السابع

فى دمشق وفى معسكر تيمورلنك

عود ابن خلدون الى منصب القضاء . وفاة السلطان برقوق وولاية الناصر فرج . رحلة ابن خلدون الى فلسطين . عزله عن القضاء . غزو التتار للشام . مسير الناصر فرج الى لقاء الغزاة . استصحابه لابن خلدون الى دمشق . عوده فجأة الى مصر . نزول ابن خلدون من أسوار دمشق وسيره الى معسكر تيمورلنك . وصفه للقائه مع الفاتح . حديثه مع تيمورلنك . رسالته عن جغرافية المغرب . حديث الخلافة مع الفاتح . هدية ابن خلدون لتيمورلنك ، ومفاوضاته فى الصلح . رواية المقريزى وابن اياس وابن عربشاه عن هذه المفاوضات . استئذان ابن خلدون للفاتح فى السفر . عوده الى مصر . سعى ابن خلدون الى استعادة منصب القضاء . ولايته للمرة الثالثة . اضطرام الدسائس من حوله . ذروة المعركة بينه وبين خصومه . تعاقب الولاية على القضاء والعزل منه . وفاة ابن خلدون .

— ١ —

لبث ابن خلدون بعيدا عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما ، يحول بينه وبين توليه ، على قوله ، ذلك الجناح من البلاط الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله ، انتهز السلطان أول فرصة لرده الى منصبه . وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة إحدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التنسى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالفيوم يعنى بضم قمح ضيعته التى يستحقها من أوقاف المدرسة "القمحية" فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة

الثانية . ثم توفى السلطان بعدئذ بقليل ، فى منتصف شوال ، فخلفه ولده الناصر فرج ؛ وسرى الاضطراب الى شئون الدولة ، واضطرمت الفتن والثورات المحلية حينا . فلما استقرت الأمور نوعا ، استأذن المؤرخ فى السفر الى بيت المقدس ، فأُذن له ؛ وجال ابن خلدون فى المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الخالدة ؛ وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الخليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القُمامة (قبر المسيح) . يقول لنا "وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول اليه" ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام فى ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان سنة ٨٠٢

وفى المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للرة الثانية . وسنرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ ، وأن تكراره كان مظهرا بارزا لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م)(١) ثم اخترق الشام جنوبا الى دمشق . فروعت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء

(١) راجع تفاصيل الاستيلاء على حلب فى المقريزى : السلوك فى دول الملوك — (مخطوط دار الكتب المصرية) — ج ٣ ورقة ٢٣

والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هـذه المفاجأة التى ذكرته بمـا عانى بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتملص، لولا أن عمره يشبك حاجب السلطان "بلين القول، وجزيل الانعام" (١) . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث هذه الحملة، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاچقة . وكان سفر الحملة فى ربيـع الثانى سـنة ٨٠٣، فوصلت الى دمشق فى جمادى الأولى، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء فى المدرسة العادلية، واشتبك جند مصر توا مع جند الفـاتح فى ظاهر دمشق فى معارك محليـة ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافا حدث فى معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ؛ وعلم السلطان أنهم دبروا مؤامرة لخلعه، وتولية أمير آخر يدعى لاچين ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا الى القاهرة فوصلها فى جمادى الآخرة (٢) . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزعة المغامرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينـة فى يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جمـاعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسـه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقا على

---

(١) التعريف : النسـخة المخطوطة . ويقول المقريزى إن أوامر السلطان ليشبك كانت صريحة فى ارغام ابن خلدون على السفر (السلوك — ج٣ ورقة ٢٤).

(٢) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٦

ما شجر بين القادة من خلاف " وبلغنى الخبر، فخشيت البادرة على نفسى ، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج ، أو التدلى من السور لما حدث عندى من توهمات ذلك الخبر"(١) . وانتهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوه من السور، وألفى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذى عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، والتمس منهم مقابلة تيمور، فساروا به الى المعسكر وأدخل فى الحال الى خيمة الفاتح . ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير فى قوله : "ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشريها الى عصب المغل ، جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا . فلما دخلت عليه ، فانحنيت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومد يده الى فقبلتها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعانى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا "(٢) .

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه الى مصر وما وقع له بها ، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه ، وطلب اليه أن يكتب له رسالة فى وصف المغرب . وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى مذ تألق نجمه وبزغ مجده ، وشرح له طرفا من آرائه ونظرياته الاجتماعية فى العصبية والملك . ولا ريب أن مفاوضة

(١) التعريف : النسخة المخطوطة .

(٢) التعريف : النسخة المخطوطة .

فى شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ؛ فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك ، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ إلى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة . ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حينا ؛ ثم انصرف واشتغل أياما بكتابة رسالة فى وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله اثنتى عشرة كراسة صغيرة ، ثم قدمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها إلى اللغة المغولية[1] .

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت بالتسليم من بطش الفاتح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة فى المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت ، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعيث والنهب وأضرموا النار فى معظم أحيائها ؛ وتكررت المناظر المروعة التى وقعت فى حلب . على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة ؛ وحدثه تيمورلنك ضمن ماحدث بأمر شخص تقدم اليه مدعيا بالخلافة وأنه سليل بنى العباس ، وجرت مناقشات فقهية طويلة فى شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته فى الخلافة . وقدم ابن خلدون أيضا إلى الفاتح هدية هى « مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة

---

(١) لم تصل الينا هذه الرسالة التى كتبها ابن خلدون فى وصف بلاد المغرب ، ولكن المرجع أنها لم تكن سوى صورة مفصلة مما كتبه فى ذلك فى تاريخه الكبير فى القسم الذى يخصصه لتاريخ البربر ويمهد له بوصف عام فى جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها) .

من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ،ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين فى مجلسه . والتمس المؤرخ منه فى هذا المجلس أمانا للقضاة والرؤساء والعمال فأجابه الى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هى رواية ابن خلدون عن صلته بالفاتح التترى ، وما وقع له معه من المحادثات والمقابلات ، وقد كان فيها يؤدى دور السياسى القديم . ولكن مؤرخا مصريا كبيرا معاصرا هو المقريزى يفصل هذه الحوادث تفصيلا آخر فيقول لنا إن الذى فاوض تيمورلنك فى تسليم دمشق هو القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى ؛ أرسله الزعماء الى الفاتح إجابة لطلبه فى عقد الصلح بعد أن فشل فى اقتحام المدينة بالعنف ، وان ابن مفلح بذل نفوذه لإقناع الزعماء بالتسليم ، وأنه هو الذى تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان والفقهاء ، واقتادهم الى معسكر الفاتح وعقد معه الصلح واستصدر منه الأمان ،ثم تولى بعد ذلك تنفيذ جميع رغائبه فى جمع المال والأسلاب . ولكن تيمورا نكث بعد ذلك عهده ، وقبض على ابن مفلح وزملائه ، واقتحم جنده المدينة ونهبوها واضرموا النار فيها[1] . ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصرى آخر هو ابن إياس ، ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح للمفاوضة لأنه كان يعرف التركية[2] . على أن المقريزى يؤيد رواية ابن خلدون

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٧

(٢) ابن اياس فى «تاريخ مصر» (بولاق) ج ١ ص ٣٣١ و ٣٣٢

فى مكان آخر فيقول لنا إنه « لما علم بتوجه السلطان تدلى من سور المدينة وسار الى تيمور لنك، فأكرمه وأجلسه وأنزله عنده ؛ ثم أذن له بالمسير الى مصر فسار اليها »، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأطلق معه جماعة بشفاعته[1]. وابن خلدون صريح فى روايته فى أنه هو المفاوض والوسيط فى عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وانه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ؛ ولا شك عندنا فى روايته . وهى من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشق مؤرخ تيمورلنك الذى كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة، و يصور لنا فى عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات[2] . على أن صحة هذه الرواية لاتمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك فى المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا أخرى غير ما وفق اليه فى شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة ؛ ولعله كان يرجو الانتظام فى بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب فى ظل رعايته ونعمائه . على أنه لم يوفق بلا ريب إلى تحقيق مثل هذه الأمنية ؛ فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق، وذهب إلى تيمور يستأذنه فى العود إلى مصر، فأذن له وطلب اليه فى تلك

---

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٨

(٢) ابن عربشاه فى كتاب «عجائب المقدور» (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها . وراجع كتاب « مصر الاسلامية » ص ١٢١

المقابلة أن يقدم اليه بغلة إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها، و بعث اليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر المؤرخ دمشق فى شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها؛ ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه؛ ولكنه وصل سالما إلى القاهرة فى أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة .

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطا بنجاته «وحمدت الله على الخلاص» و يقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق، يصف هذه الحوادث وما وقع خلالها بينه و بين تيمورلنك، و يصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

— ٢ —

وما كاد ابن خلدون يستقر فى القاهرة حتى أخذ يسعى للعود الى منصب القضاء . وقد رأينا انه كان يحتفظ دائما بكرسى التدريس فى مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ، وكان ابن خلدون يشعر وهو فى ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة، انه بحاجة الى ذلك النفوذ الذى اعتاد أن يتمتع به فى جميع علائقه السلطانية؛ وكانت المعركة التى تضطرم حول ذلك الكرسى، والتى شهدنا مظاهرها فى تكرار تعيينه وعزله، تذكى بلا ريب فى نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسى، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع ابدا الى مسند النفوذ والجاه. و يصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه ثقة فى اشارة موجزة إذ يقول لنا فى خاتمة ترجمته للمؤرخ «رحمه الله، ما كان أحبه

فى المنصب »[١] . وكان ثمة شيء آخر الى جانب هـذا الشغف بالمنصب ؛ فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة ، يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته فى القصر وان يتغلب على كيد خصومه ، و يفقده كلما نجحت سعاية خصومه فى حقه .

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية فى المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا فى ركب السلطان الى الشام ؛ فاتخذ خصومه بعـده عن القاهرة فرصة للدس فى حقه ، وزعم بعضهم انه هلك فى حوادث دمشق[٢] . و يريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظا له أو انه وعد على الأقل برده اليه من أولى الأمر ، فيقول لنا انه على أثر هـذا الإرجاف فى حقه عين مكانه فى قضاء المـالكية ، جمال الدين الاقفهسى (جمادى الثانية سـنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الاقفهسى ؛ وولى ابن خلدون للمرة الثـالثة فى أواخر شـعبان أو أوائل رمضان[٣] ، فلبث فى منصبه زهاء عام يعمل فى جو يفيض بالأحقاد والخصومة ، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وانه استمر كما كان «من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض» . فاضطرمت

(١) ابن تغرى بردى ، فى المنهل الصافى — ج ٢ ورقة ٣٠١ .

(٢) التعريف : فى النسخة المخطوطة .

(٣) يذكر ابن خلدون فى التعريف أن تعيينه هذه المرة كان فى «أواخر شعبان» ولكن ابن تغرى بردى يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠١) و يقول ابن إياس انه كان فى ١٣ رمضان (تاريخ مصر ١ ص ٣٣٧) .

من حوله الدسائس القديمة، واشتدت فى حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة، وعزل المؤرخ كرة أخرى فى ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤)، وولى مكانه جمال الدين البساطى فى أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل . والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة ، وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه مالم يعان من قبل، حتى انه طُلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووُجه اليه كثير من التهم . و يقول لنا ابن حجر والسخاوى فى هذا الموطن : « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أمورا كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له الإهانة مالامزيد عليه »[١] . وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر ، وبقى مظهرها التداول على المنصب، ولكنه انحصر حينا بين ابن خلدون والبساطى، مما يدل على ان البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوىء المؤرخ فى هذا الدور من المعركة . والظاهر أيضا أن ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثرا مما يعتمدون عليه؛ فانه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة، واستمر فى المنصب عاما وشهرين ؛ ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الاول سنة ست (٨٠٦) ، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه ، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع ؛ وأعيد

(١) ابن حجر فى كتاب «رفع الاصر عن قضاة مصر» (مخطوط دار الكتب السالف الذكر) ورقة ١٥٩ — وينقله السخاوى فى الضوء اللامع .

ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ؛ وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ؛ ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسى لمدة يومين فقط ؛ ثم أعيد البساطى فى ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل فى شعبان من العام ذاته ؛ ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة ، فلبث فى منصبه بضعة اسابيع فقط[١] . وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦م) توفى المؤرخ والمفكر الكبير، قاضيا للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث ، ورائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر[٢] ، وهى يومئذ من مقابر العظماء والعلماء . و يصل ابن خلدون فى تدوين أخبار هذا النضال العجيب حتى عزله للمرة الخامسة فى ذى القعدة سنة سبع اعنى الى ما قبل وفاته بعدة اشهر فقط .

---

(١) راجع فى أدوار هذه المعركة وحوادث التعيين والعزل — ابن خلدون نفسه فى التعريف (النسخة الخطية ص ١٤٧) ، وحسن المحاضرة للسيوطى (مصر) ج ٢ ، ص ١٢٣ ، والمنهل الصافى (ج ٢ ورقة ٣٠١) ، وتوجد مفارقات يسيرة فى التواريخ فى مختلف الروايات .

(٢) السخاوى فى الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٧٠ .

الفصل الثامن

ابن خلدون والتفكير المصرى

ابتعاد ابن خلدون فى مصر عن أحداث السياسة . إنتاجه الأدبى فى هذه الفترة . حكم ابن خلدون على المصريين . بذور الخصومة بينه وبين المجتمع القاهرى . حملات الكتاب المصريين عليه . موقف الحافظ ابن حجر منه ومن مؤلفه . مطاعن الركراكى والبشبيشى والعينى فى حقه . حملة السخاوى عليه . الجناح الذى يؤازره من الكتاب المصريين . تقدير المقريزى له ولتفكيره . تأثر المقريزى بتفكيره ونظرياته . ظهور هذا التأثير فى كتابات المقريزى . نظريات المقريزى فى أسباب محن مصر . شهادة أبى المحاسن لابن خلدون . اقتباس القلقشندى من آثاره . حياة ابن خلدون فى مصر . عزلته وآلامه المعنوية . أين كان يقيم فى القاهرة . أين يثوى الثواء الأخير .

— ١ —

قضى ابن خلدون فى مصر ثلاثة وعشرين عاما (٧٨٤ — ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجا .

فأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التى قضاها ابن خلدون بالمغرب، والتى جاز خلالها معتركا شاسعا من المغامرات والدسائس الخطرة، وعانى كثيرا من الخطوب والمحن، كما نعم مرارا بمراتب النفوذ والسلطان، والتى هى فى الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب فى أواسط القرن الثامن؛ هذه الحياة المضطرمة العاصفة، استبدلها المؤرخ فى مصر بحياة أكثر هدوءا ودعة .

وفى مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ؛ يتجرد من ثوب السياسى المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر ، وليستوحى نفوذه المحدود من هذه الناحية . على أن المؤرخ لقى فى هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد أسرته ، ولقاؤه للفاتح التترى تيمور لنك .

وأما عن الإنتاج الأدبى ، فقد رأينا أن المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته ، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر . ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفا جديدا ؛ غير أن الذى لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتب والمراجع الشاسعة ، قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب والإضافة فى التاريخ والمقدمة ؛ وسنرى فى فصل قادم أنه استمر فى مراجعة مؤلفه والزيادة فيه فى مواطن كثيرة ، ولا سيما فى أنباء الدول الإسلامية بالمشرق ، وأنباء الدول المغربية والأندلس فى عصره ، وأنه وصل فى رواية حوادث عصره حتى خاتمة القرن الثامن بعد أن كان يقف بها عند سنة ٨٨٣ ، عام الفراغ من وضع مؤلفه . كذا استمر المؤرخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر ، واستمر فيها الى قبيل وفاته ، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار . وكتب أثناء مقامه بالشام وصفا لبلاد المغرب ورفعه الى تيمور لنك كما قدمنا . كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببث مبادئه وآرائه الإجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشىء له بمصر مدرسة حقيقية ، يطبعها بآرائه ومناهجه ، وقد كان حريا أن ينشئ مثل هـذه المدرسة فى بلد انقطع فيـه للبحث والدرس أعواما طويلة . نعم إن التفكير المصرى المعاصر ليس خلوا من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذى كان حريا أن يزدهر بمصر وأن ينبث فى مدرستها التاريخيـة التى كانت يومئذ فى أوج قوتها ، كان ضئيلا محـدود المدى . ونستطيع أن نُرجع ذلك الى الروح الذى استُقبل به المؤرخ من المجتمع المصرى المفكر ، وهو روح نفور وخصومة ؛ فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصريين فى مقدمته بأنهم قوم « يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب »[1] ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة فى معرض كلامه عن أثر الهـواء فى أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر فى المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمى فإنها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت فى حقهم بغير الإستياء والحفيظة . وكان طبيعيا أن يحدث هـذا الغرس السيىء أثره فى شـعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرخ . وكان هـذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الجفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء فى ميدان التفوق والنبوغ ، أو فى تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من الجاه والرزق ، ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهرى الأدبى ينقسم عندئذ الى

(١) المقدمة — ص ٧٣

شيع وطوائف تنحاز كل شيعة أو طائفة الى زعيم أو جناح معين من الزعماء فتؤيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه فى ميدان الجدل . فلم يكن من السهل على أجنبى مثل ابن خلدون جاء ينتظم فى سلك هذا المجتمع منافسا فى طلب الجاه والرزق ، أن ينعم بصفاء الأفق ، أو يلقى خالص المودة والصداقة . هذا إلى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الجفاء والقطيعة .

كان طبيعيا أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه فى هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر مما تلقى من الإقبال والتقدير وأن تكون محدودة الذيوع والأثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جليا فى بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير ؛ فهو يقول لنا فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مرارا وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصا فى التاريخ » وإنه « كان لسنا فصيحا حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة » ، وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه[1] . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة وينقل فى ترجمته كثيرا مما قيل فى ذمه وتجريحه . فهو يقول لنا فى تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطلعا على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار

(١) رفع الإصر (المخطط المشار اليه) ورقة ١٦٠ — ونقله السخاوى فى الضوء اللامع

المشرق»[١] ويعارض المقريزى فى مدح المقدمة ويرى أنها لاتمتاز بغير « البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية » وان محاسنها قليلة ، « غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يُرى حسنا ماليس بحسن »[٢] وأما ابن خلدون كقاض فإن ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر ، وانه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وانه عُزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس فى ورقة[٣] ؛ ثم ينقل فى هذا الموطن كثيرا مما قيل فى ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك « ان أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفه[٤] ، كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك » ومن ذلك قول الركراكى أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون « انه عرى عن العلوم الشرعية » بل ينقل ابن حجر أيضا بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التى قيلت فى حق المؤرخ ؛ من ذلك مانقله عن العينتابى وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة[٥] ؛ ومانقله عن كتاب القضاة للبشبيشى ، وهو « أن ابن خلدون كان فى أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الأحداث وانه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط » وانه

---

(١) أنباء الغمر فى أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) — ج ١ ص ٧١١

(٢) رفع الإصر — ورقة ١٦٠

(٣) رفع الإصر — ورقة ١٥٩

(٤) ابن عرفه مفتى تونس ، وكان خصما لابن خلدون كما قدمنا

(٥) أنباء الغمر — ١ ص ٧١١

كان « يكثر من الازدراء بالناس ؛ وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فاذا ولى المنصب غلب عليه الجفاء والنزق فلا يعامل بل ينبغى أن لا يرى » . وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطرمة، ومبالغة فى الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف . وقد كان البشبيشى [١] بلا ريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ فى كتاب ألفه فى تاريخ القضاة ولم يصل الينا ولكن ابن حجر ينقل الينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة . وأخيرا يقول ابن حجر إن ابن خلدون كان يتمسك بزيه المغربى ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشىء سوى حبه المخالفة فى كل شىء [٢] .

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو إلى التأمل ؛ فهو على رغم اتزانه واعتداله وتحفظه ينساق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفا فى كتاباته . ولا ريب أن فى لهجته وأقواله مبالغة وتحامل . ولكن لاريب أيضا أن لها قيمتها فى تقدير الرأى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشتد فى تجريحه

---

(١) وهو الجمال عبد الله البشبيشى . ولد سنة ٧٦٢ هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية ، وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الأدب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حينا " ترجمته فى الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص ٥١١ "

(٢) رفع الإصر فى مواضع مختلفة من ترجمة ابن خلدون — الورقة ١٥٨ الى الورقة ١٦٠

والحملة عليه ؛ وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيرا من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ، والجمال البشبيشى ، والركراكى ، وبدر الدين العينى (العينتابى) . وقد امتدت آثار هذه الخصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجرى حتى جاء السخاوى فى أواخر هذا القرن يردد كل ماذكره ونقله شيخه ابن حجر فى ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره ، ولكن فى لهجة مرة لاذعة تنم عن الخبث وقصد التشهير والهدم ، أكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح . وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو فى معجمه (الضوء اللامع) فى معظم تراجم الشخصيات البارزة ؛ بيد أنه يعترف فى كتاب آخر له « بنفاسة » مقدمة ابن خلدون ، ويبدو أكثر اعتدالا وتقديرا[1] .

— ٢ —

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوى من الرأى المصرى المفكر . وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ العلامة تقى الدين المقريزى . فقد درس المقريزى فى فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه ، ورائع محاضراته ، وطريف آرائه ونظرياته . ويتحدث المقريزى عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته « بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة »[2] ويتتبع أخباره فى مصر والشام فى كتابه « السلوك » ويترجمه فى كتابه « درر العقود الفريدة » باسهاب واعجاب ،

(١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ — (مصر) ص ١٥١

(٢) راجع خطط المقريزى — ج ٢ ص ٧٦ و ١٩٠

ويرتفع فى تقدير مقدمته إلى الذروة فيقول : « لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم ؛ توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء سرى به النسيم »[1] . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر كما قدمنا . ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوى على المقريزى موقفه من ابن خلدون ، ويرميانه بالمبالغة والإفراط فى تعظيمه وإجلاله ؛ ويقدم إلينا ابن حجر تعليلا لهذا الموقف ، هو أن المقريزى كان ينتمى إلى الفاطميين وابن خلدون يجزم بانتفاء نسبهم ، ثم يقول لنا ، إن المقريزى غفل فى ذلك عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان لانحرافه عن آل على ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى الألوهية[2] .

وقد تأثر المقريزى فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون بنظرياته تأثرا كبيرا . وظهر هذا الأثر واضحا فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » الذى انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار

---

(١) لم يصلنا من « درر العقود الفريدة » سوى قطعة صغيرة . واعتمادنا هنا على ما نقله السخاوى وابن حجر عن المقريزى — فى الضوء اللامع للسخاوى ؛ وفى رفع الإصر وأنباء الغمر لابن حجر .

(٢) رفع الإصر — الورقة ١٦٠ — ونقله السخاوى فى الضوء اللامع .

الكتب المصرية[١] .

ففى هذا الكتاب الذى يقول لنا المقريزى إنه كتبه فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ٨٠٨، والذى يتحدث فيه عن محن مصر منذ أقدم العصور إلى عصره ، يخو المقريزى فى الشرح والتعليل منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون فى مقدمته . فيقدم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضى والحاضر، وملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشرق منذ الطوفان إلى عصره، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن وأدت إلى استمرارها طوال هذه الأزمان . وفى هذا الفصل نرى منهج آبن خلدون فى البحث والتعليل واضحا ، بل نرى المقريزى يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل « أحوال الوجود وطبيعة العمران » وما اليها .

• فى رأى المقريزى أن أسباب الخراب والمحن ، ترجع أولا : إلى تولية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها ، وثانيا : الى غلاء ايجار الأطيان ، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد (نفقات الانتاج) على الغلة ، وثالثا : الى ذيوع النقد المنحط ، ويتبع ذلك بنبذة فى تاريخ العملة فى الدول الاسلامية ومصر . ثم يتحدث عن طبقات المجتمع ، وأوصاف الناس ، ويقسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام :

(١) أهل الدولة .

(٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

---

(١) توجد هذه النسخة ضمن مجموعة خطية محفوظة برقم (٧٧ مجاميع م) وتشغل فيها من الورقة ١٤ إلى الورقة ٤٣

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، وأصحاب المعاش وهم السوقة .

(٤) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف .

(٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم .

(٦) أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن .

(٧) ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس .

ويذكر المقريزى أحوال كل فريق بالتفصيل . ثم يتحدث عن أسعار عصره وبخاصة أسعار المواد الغذائية، ويختتم بشرح رأيه فى معالجة هذه المحن، وهو أن يغير نظام العملة، فلا يستعمل منها إلا المكين الثابت من ذهب وفضة ، وهى فكرة تثبيت النقد بعينها .

هكذا ينحو المقريزى فى الشرح والتعليل . وهكذا نلمس أثر المؤرخ واضحا فى منهج تلميذه ؛ ونستطيع أن نجد كثيرا من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزى فى رسالته ، وبين ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده، وعن السكة، وعن أثر المكوس فى الدولة، وأثر الظلم فى خراب العمران، وكيف يسرى الخلل الى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط ، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها،[1] بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر فى بعض ما كتبه السخاوى نفسه فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » عن قيمة التاريخ وأثره فى دراسة أحوال

(١) راجع هذه الفصول فى مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٠ — ١٤١ و١٥٧ — ١٥٨ و٢١٧ — ٢٢٠ و٢٤٦ و٢٥٢ .

الأمم، فهنا يبدو السخاوى أيضا رغم خصومته لابن خلدون متأثرا بفكرته الفلسفية فى شرح التاريخ وفهمه .

وهنالك مؤرخ مصرى آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يشاطر شيخه المقريزى تقديره لابن خلدون، ويشيد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء، ويقول لنا انه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته[١] .

ويظهر أثر ابن خلدون أيضا فى اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه . ومن هؤلاء أبو العباس القلقشندى صاحب كتاب « صبح الأعشى » فانه يقتبس من ابن خلدون فى مواضع شتى من موسوعته[٢] .

— ٣ —

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون فى مصر، وصلاته بحياتها العامة ، وأثره فى حركتها الفكرية المعاصرة .

وهذه الحقبة من حياة المؤرخ ، وهى حقبة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين عاما ، تخالف فى نوعها وظروفها حياته بالمغرب؛ ففى المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسيا يتقلب فى خدمة الدول والقصور المغربية، ويخوض غمر دسائس ومخاطرات لانهاية لها . ولكنه عاش فى مصر عالما وقاضيا؛ واذا استثنينا مفاوضاته مع تيمور لنك فى حوادث دمشق، وسعيه الى عقد الصلة بين بلاط

(١) المنهل الصافى — ج ٢ ورقة ٣٠٠ .

(٢) راجع « صبح الأعشى » ج ٤ و ٥ و ٦ ففيها أمثلة كثيرة من هذا الاقتباس .

القاهرة وسلاطين المغرب، فانه لم يتح له أن يؤدى فى سير السياسة المصرية دورا يذكر . واذا كان ابن خلدون قد خاض فى مصر معترك الدسائس أيضا، فقد كان هذا المعترك محليا محدود المدى، شخصيا فى نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون فى مصر أكثر استقرارا ودعة، وأوفر ترفا ونعماء من حياته بالمغرب . ولكن الظاهر أن سحبا من الكآبة والألم المعنوى كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون فى مصر غريبا بعيدا عن وطنه وأهله، وكان يعيش فى جو يشوبه كدر الخصومة وجهد النضال . ونستطيع أن نلمس ألم البعاد فى نفس المؤرخ فى بعض المواطن، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أثر مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وآنس غربته »، وهو يكشف لنا عن هذا الألم فى مواطن كثيرة .

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملا فى إذكاء هذا الألم المعنوى، وهو يحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول : « فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » .

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة فى فترات كثيرة ؛ وهو يشير إلى ذلك فى بعض المواطن، حيث يقول لنا انه : «لزم كسر البيت ممتعا بالعافية لابسا برد العزلة » . وتشير التراجم المصرية الى هذه العزلة فيقول لنا السخاوى : « ولازمه (أى المؤرخ) كثيرون فى بعض عزلاته، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » .
وكان المؤرخ يشتغل فى هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب

والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشير الى ذلك فى عدة مواضع .

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة. ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجمال البشبيشى ؛ و يقول الجمال فى أولهما : « انه كان يوما بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله و بعض نوابه أمامه ... ... » فيلوح من هـذه الإشارة ان المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحيـة فى الحى الذى تقع فيه هذه المدرسـة أعنى حى بين القصرين أو فى أحد الأحياء القريبة منه ، وذلك لأن مركز وظيفته كقاض للقضاة كان بهذه المدرسة ولان إيوان الفقهاء المـالكية كان يقع بجوارها[1] . وأما فى النص الثانى فيقول لنا الجمال ما يأتى مشيرا الى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عوده من دمشق سـنة ثلاث وثمانمـائة : « الا أنه (أى ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ... الخ »[2] . و يستفاد من ذلك ان المؤرخ كان يقيم فى هذا الحين فى أحد الأحياء الواقعة على النيل ، ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من الفسطاط ، حيث كانت لاتزال بقية من الأحياء الرفيعة التى قامت هنالك مذ خطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط فى أواسط القرن السابع ، وسكن الكبراء والسراة فى الضـفة المقابلة لها من الفسـطاط .

---

(١) راجع خطط المقريزى — ج ٢ ص ٣٧١ و ٣٧٢

(٢) سبق أن أشرنا الى هذا النص . و يراجع النصان فى كتاب رفع الإصر لابن حجر فى ترجمة ابن خلدون .

ويرجح هذا الفرض ان المدرسة القمحية التى كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحى .

هـذا وأما مثوى المؤرخ الأخير ، فقد ذكر لنا السخاوى أنه دفن «بمقابر الصوفية خارج باب النصر» . ويحدثنا المقريزى عن موقع هذه المقابر[1] وقد كانت تقع بين طائفة من الترب والمدافن التى شيدها الأمراء والكبراء فى القرن الثامن خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية) . ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية فى أواخر القرن الثامن فى هذا المكان وخصصت لدفن الصوفيـة ، وقد كان المؤرخ كما نذكر ، مدى حين شـيخا لخانقاه بيـبرس .

فهل يكشف لنـا الزمن يوما عن مثوى رفات المفكر العظيم فيغدو قبره أثرا جليلا يحج اليه المعجبون برائع تفكيره وخالد آثاره ؟

---

(١) الخطط — ج ٢ ص ٤٦٣ .